محاضرات

تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم

الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف

ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الجزء الأول

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى : شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الخامسة : سنة ١٣٦٦ هجرية

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

محاضرات

تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الجزء الأول

تطلب من
المكتبة التجارية الكبرى: بشارع محمد علي بمصر
لصاحبها: مصطفى محمد

الطبعة الخامسة: سنة ١٣٦٦ هجرية

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد عهد إلىّ مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها فى تاريخ الأمم الإسلامية فقمت بما عهد إلىّ به على قدر مامنحت فى العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد فى تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وها هى ذى تعرض على المؤرّخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهى صعوبة استفادة التاريخ العربى من كتبه .

هـذا وإنى أعلن شكرى الوافر وثنائى العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلته من ثقته حتى اعتمد علىّ فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى وإخلاصى رجل الهمة والعزيمة الأمير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الأمام . فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدده فى القول والعمل إنه نعم المجيب ؟

محمد الخضرى

---

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه ، وأبقاه ذخرا لمصر خاصة وللإسلام عامة وأقر عينه بولى عهده المحبوب سمو الأمير فاروق

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى

فى التاريخ الإسلامى

مباحث التاريخ الإسلامى — ما يلزم المؤرخ — جزيرة العرب
ووصفها — شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذى جاء به سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لأن تسيح إلى ما جاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانا واسعاً يرتكز على دعامة ذلك الدين فمؤرخ الإسلام يرجع بحثه إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضاً :

الأول — الدين الإسلامى وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التى وقفت فى طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثانى — تأثيره فى النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الأقاليم وما كان منها فى سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقاداً إلى سلطان الدين

الثالث — ماكان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التى دانت بالإسلام وماكان للدين من التأثير فى قيام دولة وسقوط أخرى ، وفى حضارة الأمم التابعة لسلطانه

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لأول مرة هم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية فى تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجىء الإسلام لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أنا سنقدم كلمة صغيرة فى أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أوفرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم فى حوادثه تحكما تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ فإن عاطفة الحب تجعل كل ماليس بحسن حسنا وتجتهد فى تأويل

الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته ، وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحاً وتستنبط من الخير شراً ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذى يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً ، وإذا نظرنا إلى أنفسنا نجدها لا تحكم على شيء من الحوادث التى تشعر بها حكما بحسب ما تستحق ، فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسناً جميلا والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوإ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء والمعوزين فى حال رغده ولا نأبه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مراء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف فى دراسة التاريخ أمر صعب المنال لايصل إليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت فى بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطإ شيء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم ؛ لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل مايرد على تاريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتى الحب والبغض

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التى نشأوا فيها « جزيرة العرب » مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء كما قال ياقوت[1] فى معجم البلدان نقلا عن هشام[2] بن محمد السائب عن ابن عباس[3] إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من

---

(١) هو ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى الأصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة فى التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة فى النقل توفى سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب (٢) نسابة عربى له كتاب الجهرة فى النسب وله مصنفات كثيرة كلها فى أخبار العرب توفى سنة ٢٠٤ (٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب جد الملوك من بنى العباس . من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفى فى خلافة ابن الزبير سنة ٦٨

جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها فى مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات [١] أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين [٢] ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة [٣] والأبلة [٤].

وامتد إلى عبادان [٥] وأخذ البحر فى ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سفوان [٦] وكاظمة [٧] إلى القطيف [٨] وهجر [٩] وأسياف البحرين [١٠] وقطر [١١] وعمان [١٢] والشحر [١٣] ومال منه عنق إلى حضرموت [١٤] وناحية أبين [١٥] وانعطف مغربا منصباً إلى دهلك [١٦] واستطال ذلك العنق فطعن

---

(١) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً فى خليج عمان من بحر الهند (٢) قنسرين مدينة جنوبى حلب وكانت اسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ (٣) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب فى خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ (٤) بلدة على شاطئ النهرين فى زاوية الخليج الذى يدخل مدينة البصرة (٥) مدينة فى الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة فى خليج عمان منسوبة إلى عباد بن الحصين وكثيراً ماينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه (٦) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين (٧) جو على سيف البحر وهى المنزلة الثانية فى جادة البصرة إلى البحرين (٨) مدينة بالبحرين وهى قصبتها (٩) مدينة بالبحرين وقيل وهى اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (١٠) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هى وعمان فى أيام بنى العباس عملا واحداً، وسيف البحر ساحله (١١) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (١٢) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهى إلى البحرين وقصبتها مدينة صحار (١٣) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٤) ناحية واسعة فى شرق عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١٥) مخلاف باليمن منه عدن (١٦) جزيرة فى بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى فى زمن بنى أمية.

فى تهائم اليمن بلادفرسان (١) وحكم (٢) والأشعريين (٣) وعك (٤) ومضى إلى جدة(٥) ساحل مكة والجار (٦) ساحل المدينة ثم ساحل الطور (٧) وخليج أيلة (٨) وساحل رايه (٩) حتى بلغ القلزم (١٠) مصر وخالط بلادها وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضاً للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلادفلسطين (١١) فمر بعسقلان وسواحلها واتى صور(١٢) ثم سواحل الاردن(١٣) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة (١٤) إلى سواد العراق.

وهذا التحديد وإن كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضي أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عندالمؤرخين فإنهم

---

(١) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبى (٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب إليهم أبو نواس الحكمى

(٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعر بن أدد من كهلان بن سبأ ينسب إليها أبو موسى الأشعرى (٤) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان من الازد ثم من كهلان (٥) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة

(٦) فرضة على ساحل بحر القلزم وهى جنوبى ينبع (٧) شبه جزيرة فى شمال خليج القلزم وهى كورة مصر (٨) مدينة على ساحل بحر القلزم وهى آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجادة بين مصر ومكة (٩) كورة من كور مصر البحرية

(١٠) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدئ من المندب وبها سمى الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التى كانت على بحر الروم مقدار القناة والأولى فى مكان السويس والثانية فى مكان بور سعيد (١١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها البيت المقدس ومرفؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان (١٢) مدينة من أعمال الاردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (١٣) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والاردن نهر يصب فى بحيرة طبرية (١٤) وهى الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمي جزيرة أقور

يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءاً مهما من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لابد من القول أن هناك تسامحاً فى إطلاق لفظ الجزيرة فى البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهى :

تهامة — الحجاز — نجد — اليمن — العروض

فأما تهامة ويقال لها الغور فهى الأراضى التى على شاطىء بحر القلزم ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحر إذا اشتد وسموها غوراً لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام فى عرض أربعة أيام[1] يزيد كسر يوم فى بعض المواضع وقد ينقص مثلها فى أخرى فمبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهى قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقى عدن ، ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان فى بعض جهاتها ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقيه يبتدئ جنوباً من أدنى حدود اليمن وينتهى إلى السماوة وينتهى من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع ارضه

وأما اليمن فهو ما كان جنوبى نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد شرقا إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الاربعة أيام ١٤٢ ك تقريباً

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أعدتها السيول ليجري فيها ماؤها والصحاري الرملية المترامية الأطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الإقامة فيه حيث يجدون مايشربون ويسيمون فيه أنعامهم وما بعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادي الذي في بلاد ابني تميم ببادية البصرة يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منعجاً ثم في غطفان فيسمونه الرمة ، وهو أول نجد . ويصب في الرمة أودية أخرى أكبرها وادي الجريب والعرب تقول على لسان الرمة

كل بني فإنه يحسيني　　إلا الجريب فإنه يرويني

ثم يمر في بلاد طيء فيسمونه حائلا وهو واد في جبل طيء ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سمودى وإذا انتهى إليهم عطف إلى بلاد كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل في سواد الكوفة ومتى أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعاً لسعتها وكثرة شجرها ، طيبة التربة ، طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها مايقطع السراة حتى ينتهي إلى البحر ومنها ماهو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادي مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلوه في العظم وبعد المأتى وادي زبيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرقي وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذي يفضي إلى موضع السد سد مأرب ويسق بعدها أرض الجنتين وأرض السبئيين

وهناك وديان كثيرة في الجوف بين الجبلين

العرب تسمي المواضع التي يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم

خاص بما يكون فى الأرض الواطئة فإن كانت فى أعالى البراق (١) والقفاف (٢) فهى السلقان واحدها سلق وإذا جاءتها المياه أنبتت ضروبا من العشب والبقول لا يسرع إليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمى (٣) ربعت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا فى ميل فإذا عرضت جداً فهى قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ إما فى روض وإما فى واد. وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة فى جهات مختلفة وهى المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء.

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تستحاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ولا سيما أن كثيراً من مياهها يغيض فى باطن الأرض فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التى أمكنها فيما مضى أن تتحكم فى مجارى الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبنى سداً محكما يحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويغيض فى الأرض ولهذا عدت اليمن قديما من البلاد المخصبة المستعدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الأشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء.

أما ماعداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التى لا تروى إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ فى بعض سهولهم القريبة من الوديان - وأما نجد والعروض ففيهما وادى الدهناء ومايصب فيه من صغار الأودية. ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة

(٢) القفاف جمع قف وهو ماارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا

(٣) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثانى يسمونه الولى.

مائه يغيض فى الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قلما كان العرب فى بواديهم يبقون فى مكان واحد وإنما يتبعون مواقع القطر أنى كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها .

وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار .

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان - بحكم الضرورة - عدم الاعتماد على ماتنبته الارض من المزروعات الدورية التى لاتصلح للإنسان كان جل اعتماد أهل البادية على إنعامهم ولاسيما الإبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم فى تلك الصحارى المقفرة إلى مايرومون من الجهات أما بلاد اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أى جهة أخرى فى الجزيرة لأن تمدين المدن فى غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها .

جو البلاد

أما ماكان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة فكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر فى الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصاً الحرار منها لسواد لونها ويشتد بالجبال البرد فى الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمثال .

أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلا ومابعد عنها حره أكثر .

وجو اليمن وهواؤه معتدل فى فصلى الشتاء والخريف . أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التى تستمر زمناً طويلا ويشتد به الحر فى فصل الصيف .

محاج الجزيرة

فى هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فإنهم إذا عرفوا بقرية أوجهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هى على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر إلى البصرة أو الكوفة فإن لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة .

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى سنة ٣٢٤ فى كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها ومابين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذ به فى كتابه المسالك والممالك. ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلا، وجادة الكوفة إلى مكة وهى تفارق الأولى من معدن النقرة فى الشمال الشرقى من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلا منها

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة وهى تتحد مع جادة الكوفة فى معدن النقرة الذى يلى منزلة النباج وجادة البصرة إلى مكة ولا تمر بالمدينة ومنها فى الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠: وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقى مع محجة صنعاء فى منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء فى صعدة ومنها السفلى، وتتقابل مع محجة صنعاء فى تباله وتمر على نجران

ومنها محجة البصرة إلى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

الشعوب العربية

العرب قبائل شتى ترجع فى نسبها إلى شعبين عظيمين:

الأول: شعب قحطان؛ والثانى: شعب عدنان.

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنة ملوك الشام:

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى اسم القبيلة التى اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافا

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا فى الاستفادة بمياه السيول التى تنقذف فى الوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الأرض أو في البحر فأقاموا بمارب سداً

وصفه ياقوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد ، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ، ومنهم من قال إن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت

ونحن نرجح الرأى الأخير لسببين :

الأول : أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملا خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره

الثانى : أن الكتاب لما قص علينا هذه القصة فى السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) فهذا واضح فى أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأى العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأى كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الأزد من كهلان خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا ينتقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بنى إسرائيل متفرقون فى نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسخيل ، والنو من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة .

وتخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم .

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان .

وسارت قبائل نصر بن الأزد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء إليه .

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بنى أدد بن زيد قبيلة لخم بن عدى الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا - عمرو بن عدى ابن نصر الذى ملك بعد جزيمة الوضاح .

ومنهم طيئ : ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان فى الشمال الشرقى من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ولهما ذكر كثير فى أشعار العرب الطائيين لما لهما من المتعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بنى نصر : قال شاعرهم عارق الطائى :

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة * إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه ؟ * تأمل رويدا ماأمامة من هند
ومن أجأ حولى رهان كأنها * قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهى فى آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء .

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الأراضى العربية الشمال والغرب وبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السياد على البلاد ومنهم الملوك والأقيال .

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه ـ معيشة العرب من بدو ومن حضر
حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة فإن عدنان ـ بإجماع كلمة المؤرخين من العرب ـ ينتهى نسبه إلى إسمعيل بن إبراهيم الذى جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب إليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ولم تزل أبناء إسمعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية .

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه إياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما .

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر فى الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام .

ومن ربيعة عبد القيس ابن قصى ومنها بكر وتغلب ابنا وائل . ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس ابن مضر .

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنوسليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغنى بن أعصر .

وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمة . ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من اشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب

وعدى بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار ابن قصى وأسد بن عبد العزى بن قصى وعبد مناف بن قصى .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد على بن أبى طالب بن عبد المطلب .

مساكن العدنانية

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أن البلاد التى نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجىء الاسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوى من بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجىء الاسلام هوذة بن على الحنفى الذى يقول فيه الأعشى :

من ير هوذة يسجد غير متئب إذا تعمم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها لا ترى عيبا ولا طبعا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لم يتتوج معدى قط وإنما كانت التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرى فى جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى للبحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر فأطراف سواد العراق فالأبتلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكراً وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهى إلى الحرة فتلك ديارهم لا يخالطهم إلا بعض الأنصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن فى شرقى مكة بنواحى أوطاس - وهى على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران وبقى بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرقون لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى ابن كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم.

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب ـ بالنسبة إلى مساكنهم ـ إلى حضر: وهم سكان المدن. وبدو: وهم الذين يقيمون فى البادية. إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم إلا فى ذلك الجو الفسيح ـ لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء. وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور: وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب، وهو ماسنتبعه. ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعنجهية

أما الحضر: فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء. ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض: وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك، وفى شمال اليمن مكة: وهى تهامية؛ والطائف والمدينة وهما حجازيتان؛ وخيبر: وفى نجد حائل؛ وفى العروض حجر ـ قصبة اليمامة ـ والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا فى صيف ولا فى شتاء.

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء مايبغون وبيع مايحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحى الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الأعراب كبير من كبار العرب تحمل البز والثياب وماتحتاجه العرب: وكان لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما للشام فى زمن الصيف. والأخرى لليمن فى زمن الشتاء: وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافىء تجارية كبيرة ولم يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لها وهما الفرس والروم.

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها حتى إن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لا نجده أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هى جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأن القرظ لما كان كثيراً فى جهة صنعاء استعملوه فى دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح من النعال وغيرها . وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل وكانوا يرجعون فى صناعة البناء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة فى زمن قريش وبناء الخورنق فى زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان .

(أحوال العرب)

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التى تمثلها لنا أكبر تمثيل فى الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية ، ونعنى بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبنى عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعنى بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التى توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعنى بالسياسية ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعة لغيرهم ، ونعنى بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة .

حال العرب الاجتماعية

الرجل فى أهله ـ ونريد بالأهل خصوص الزوج :

يظلم العربى من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإنا إذا كنا نستقى تلك المعاملات من شعرهم الذى هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى أكثر أوقاته إلا المرأة التى إن رقى فى نظرها فقد رضى الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً فى أشعار حاتم الطائى شيخ الكرام وعنترة العبسى شيخ الشجعان ثم انظر إلى أى شجاع من العرب هل كان يفتخر

إلا محدثا امرأة من قومه بأنه المدافع عن الحريم الحامى الحقيقة .

تراه إذا عذلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق مايجيب به مخالف فى الرأى .

ألم تعلمى ياعمرك الله أننى * كريم على حين الكرام قليل ؟

أولا ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التى بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم - لايذهبون إلى شىء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة ، وتراهم حينما يخاطبونها وهى ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب فيقول أحدهم .

يا ربة البيت قومى - غير صاغرة * ضمى إليك رحال القوم والقربا

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها فى النفس من سمو الدرجة وما أحلى احتراسه فى قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجه .

سلى الطارق المعتر يا أم مالك * إذ ما أتانى بين قدرى ومجزرى

أيسفر وجهى وهو فى أول القرى * وأبذل معروفى له دون منكرى

فلا يناديها إلا بكنيتها وهذا من سمات التشريف فى عرفهم ،

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لايشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم إلى آبائهم وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمعت فإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت وإن وجهتها إرادة الانتقام إلى الشر أشعلت النار بين الأحياء .

قال الحارث بن عوف المرى لخارجة بن سنان - فى إبان الحرب بين عبس وذبيان أتراني أخطب إلى أحد فيردنى قال نعم : أوس بن حارثة بن لام الطائى ، فقال الحارث لغلامه هيىء لى مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة ، حتى أتيا أوساً فوجداه فى داره فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه ، فقال جئتك خاطباً فقال أوس است هناك فانصرف ولم يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضبا وكانت من عبس فقالت من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فما لك لم تستنزله قال إنه استحمق جاءنى خاطبا قالت أفتريد أن تزوج بناتك قال نعم قالت فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك

ما كان منك فالحقه وقل له إنك لقيتنى مغضباً بأمر لم تقدم منى فيه قولا فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعت فانصرف ولك عندى كل ما أحببت فإنه سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعى لى فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب وقد جاءنى طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فقالت لا تفعل لأنى امرأة فى وجهى ردّة فى خلقى بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمى وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون علىّ فى ذلك مافيه ، قال قومى بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت إنى خرقاء وليس بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون علىّ فى ذلك ما تعلم، ثم دعا الثالثة وهى بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت أنت وذاك فأخبرها بإباء أختيها فقالت لكنى والله الجميلة وجها الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت إليه فى بيت أبيها فلما خلا بها وأراد أن يمد يده إليها قالت مه أعند أبى وإخوتى . هذا والله مالا يكون فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلى فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها ما يعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة فى نظرهم ومشاركتها لهم فى جميع أمورهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكننا أن ندعى أن هذا كان أمراً عاما عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب فى جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة لأن وجود أفراد هذه معاملتهم لا يحتمل أن يكون برهانا على أن هذا خلق عامتهم كيف ونحن فى بيئة لا نعدم فيها من يرفع زوجه إلى أعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم أن احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها ولكن الذى يمكننا أن نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير أن يقابلوا بالنكير يدل على أنه لم يكن عندهم بدعا من العمل بل كان شيئاً لا تنفر منه طباعهم يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جما ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة

يوماً فيكتب فى إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى فى زواج بنتى فكان منى ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لانعليس من مألوف عادات القوم

من ذلك يمكننا أن نقول إن علاقة الرجل العربى بأهله كانت على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الاوفر، وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الإسلام وهى مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأى إلا أن الرجل كان يعتبر - بلا نزاع - رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم بذلك وهذا الزواج هو ماعليه جمهورهم .

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان الذين لايخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان ولم يكن ذلك أمراً مستحسناً عند جمهورهم إذ المعروف عن العربى من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك .

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إن الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج فى ضمن هذه الأنواع تلك المسافحات .

وكانوا يعددون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حد معروف إليه ينتهى الأمر فى هذا التعدد فقد ورد فى الصحيح أن غيلان الثقفى أسلم وتحته عشرة نسوة

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار فى مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة لاسبية جليبة وإن كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة فى نفى العار عنه كما قال عنترة :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون

لهم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا فى أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم وكانوا يقولون : العرق دساس .

وكانوا يحرمون أنواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بنى تميم أنه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس ، والصحيح عند المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه فى غزواته .

أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربى الولد ليكون له درعا حصينة يتقى بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك وكان لهم من الحنو على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم .

وإنما أولادنا بيننـــا أكبادنا تمشى على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) ولم يكن هذا فى جميع العرب بل كان فى بعض بطون من تميم وأسد ولم يكن بالطبع إلا فى طبقة منحطة منهم لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة فى قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) .

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه وكان يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق .

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التى تعد على الأمة العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترءوا عليها .

أما معاملة الرجل لأخيه وبنى عمه دنيا فبينها هذه الجملة التى قالوها انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أمامهم فكانوا ينصرون إخوانهم وبنى عمهم نصراً حقيقياً على كل حال فى صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذى يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته

وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم .

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن   عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا
لايسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ماقال برهانا
لكن قومى - وإن كانوا ذوى عدد   ليسوا من الشر فى شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة   ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته   سواهم من جميع الناس إنسانا

وإذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل والأمر واحد فى الحلفين .

بينما هذه حالهم فى بنى أبيهم دنيا وفى حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة التى لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبدشمس وهاشم وكما تراهم فى الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية فى حروبهم والسبب فى ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول التنافس فى مادة الحياة بين بنى الأب الواحد فإنا نعلم أن حياة العرب كانت على مراعيهم التى يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التى منها يشربون وهى محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة فى الكلأ والماء وأكثر مايبتدئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فإنهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولا أو فى نفس المراعى فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بداً فينزح أحد الأخوين عن داره مرغما إلى مكان آخر هو وأولاده ومن

يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفى النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم بحسمها النقل ، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى . وهذا أمر نشاهده فى ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك فى عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعى ، فاستغربت ذلك وسألت ذوى الأسنان منهم عن سببه فأخبرونى أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذى يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه .

السبب الثانى — تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً فى نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفى هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم .

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة فى الأنساب ، المتقاربة فى الأمكنة .

ولم يكن لهم نظام يلجأون إليه فى الحكم بين المتنافرين فى الرئاسة والشرف إنما كانوا فى بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأى ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه فى النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراما

وإذا كان الحكم عارفا بدخائل العرب سوى بينهما فى الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابنى العم فإنه قال لهما أنتما كركبتى البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجد له شاعراً ياهبه ويزيد

فى نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الأعشى فى هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم أن الحكم قضى له ومما كان يزيد فى هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأخرى وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لأن كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التى تعادى قبيلته المعترف لها بالتبريز فى السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحى الإنسان من إنشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة .

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لايحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الأطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أومكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها فى بعض الأحيان تافهة كما كان فى حروب الفجار وفى البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هى النفور المتأصل فى القلوب لما ذكرناه

المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة - من هذه الجهة - قسمين القسم الأول منهم ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى سلطان أعظم منهم فهم فى الحقيقة غير مستقلين والقسم الثانى: رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج.

القسم الأول

الملوك المتوجون

ملك اليمن

إذا نظرنا إلى المولعين بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون فإنهم يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغنى من الحق شيئا.

يقولون إن قحطان بن عابر المعبر عنه فى التوراة بيقظان هو أول من سكن اليمن من بنى سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكا متوجا لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة أنه كان ملكا على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذى يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه.

والمسعودى صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه: إن أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة.

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهى بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طيئ ثم على الانبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم

ويروون عن ابنه ذى منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلى أقصاها وأن ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادى الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادى وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك أحد . وإن تبعا دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ماوجد بها وخلف بالتبت اثنى عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن .

وكل تلك الأخبار لا تقبل إلا إذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبدالرحمن بن خلدون المغربى (المتوفى سنة ثمانمائة وثمانية) فى مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدإ والخبر ، وكذلك على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٨ .

وقد بين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم فى موضعين من كتابه تاريخ الأمم والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم إنما كان رئيسا على مخلافه ومحجره لايجاوز ذلك فإن نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه . فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذى يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً إلى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدى له خرجا .

وقال فى موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر .

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الأول والآخر فترات طويلة لايقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخر ، إذ لم يكن من الأمر الدائم فإن دام شىء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره فى المواضع الذى هو به لايملك بنفسه اه .

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا فى أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء فى بعض الأحيان من يوسع

سلطانه إلى مايجاوز مخلافه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب فى حياته أو ضعفت قوة أعقابه .

وكانت حمير وكهلان فى قحطان بمنزلة ربيعة ومضر فى عدنان شعبان يتنافسان فى الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه .

غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ماوراء مخلافه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره ، حتى إذا ضعفت تلك القوة فى أيام هذا المتغلب أو فى أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال والواحد قيل .

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التى كانت بينه وبين الملك الذى يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودى .

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها فى التوراة بلقب ملكة سبأ وفى القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك بنى إسرائيل ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفى سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التى تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل إليها مهدداً (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الأصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التى كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك . وممن اشتهر من ملوكهم ؛ يوسف ذونواس ، وكان يهودياً فرأى أن بعض

رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحى اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الرومانى منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذى نواس إلا أن مثل بهم حرقاً بالنار سنة ٥٣٤ ولما علم بذلك إمبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشى صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذى نواس فبعث إليه قائداً حبشياً اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذونواس أغرق نفسه فى البحر خشية العار وظل أرياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام[1] فى سيرته بأنها الحصبة والجدرى. وروى أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد منهزماً وتوفى بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة فى سورة الفيل، وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثانى مسروق

كان فى ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعده إلا العجز وهو سيف بن ذى يزن الحميرى فرأى من الضرورى أن يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس؛ ولكنه أخفق فى استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حينا من الزمن فمات سيف[2] فذهب ابنه معديكرب إلى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته أن يعين معديكرب لما كان لهم من الأمل فى امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأبلة وقطعوا خليج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد.

وحينئذ توج وهرز معديكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب إليهم فيقال ابناوى.

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميرى المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن إسحق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعده فى السير (٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفاً هو الذى ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعودة الملك ، وممن وفد عليه عبد المطلب ابن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. كان معديكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون فى ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله ومازالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى كان على عهد الفتح الإسلامى لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلى الإسلام فجاء الإسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له الخراج ولم يكن ملكه عاما بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون فى مخاليفهم وكتب إليهم النبى صلى الله عليه وسلم كتبا مستقلة بصفتهم أقيالا كما كتب إلى النعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك .

الملك بالحيرة

بعد أن انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدونى فى سنة ٣٣٢ ق . م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون فى تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض فى هذه التجزئة وهى أن يسجل على بلاد الفرس ضعفا أبديا لا يتمكنون معه إعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح فى هذه الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التى كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذى نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الأكاسرة .

وفى عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءا مهما من ريف العراق كان قبل ملكا للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم فى تلك الجهات وسكنوا جزءا من الجزيرة الفراتية .

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التى كانت لهم من قبل رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سببا فى رحيل جمع من قضاعة إلى الشام . ودان له

أهل الحيرة والأنبار . وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم مملكته إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس) .

ولجذيمة هذا خبر طريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد أن يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته فى قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجىء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال فى الغرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذى أعدته لهربها فأدركها عمرو فمصت سما وقالت بيدى لا بيد عمرو ، ولما وقعت أجهز عليها عمرو .

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الإفرنج ، ويقولون إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبرارى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان فى عهد القيصر أووليانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك فى المدة بين سنتى ٢٧٠ ، ٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالى سنة ٢٦٨ م .

وبعد موت جذيمة ولى أمر العرب عمرو بن عدى بن نصر اللخمى وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم سنة ٣٦٤ إلا أن الملك قد انقطع

فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو فى عهد سابور بن أدشير ولم تزل الملوك من بنى نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر فى زمنه مذهب الإباحية فى بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجا وتبعه خلق كثير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى الذى كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى .

ولم يزل ملكا حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بنى حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم فى ديار بنى مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته .

فآبوا بالنهاب وبالسبايا   وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث فى دار كلب حتى مات .

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجراً على بنى أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معديكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبنى سعد من تميم . ولم يكن هذا الملك بالشىء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل الملك ومايستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لأخذ الثأر ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه فى ذهابه إلى ملك الروم واستنجاده به على قتلة أبيه .

ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر فى عقبه حتى كان النعمان بن المنذر

المكنى بأبى قابوس صاحب النابغة الذبيانى وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى انتقاما منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل إليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن فذهب يتنقل فى أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلا حتى ورد ذاقار ونزل على بنى شيبان سرا فلقى هانىء بن مسعود الشيبانى وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة فى آل ذى الجدين لقيس بن مسعود أخى هانىء وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان أن يرفع إليه أهله لذلك وعلم أن هانئاً يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائى وهو من أشراف طىء وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود فيطلب منه تسليم ماعنده فأبى ذلك هانىء حمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر إياسا أن يسير إليهم بالجنود ومعه مرزابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بنى شيبان قال لهم هانىء يامعشر بكر لاطاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام حنظلة ابن ثعلبة العجلى وقال ياهانىء أردت نجاءنا فألقيتنا فى التهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجىء الفرس حتى جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة .

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكما فارسياً كما فعل فى بلاد اليمن بعد موت معديكرب ،

وفى سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقى من بنى نصر بالعراق

جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً كما كان فى اليمن لأن الملك كان عاملا للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدى لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شاءوا عزلوه . ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطانا تاماً وإنما كان اسمياً

لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون فى وجهه محاربين وكان أحيانا ينتصر عليهم إذا قاموا فى أماكنهم وأحيانا يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجتمعون ببواديهم فلا يمكنه أن يتبعهم.

ومايدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندى قال يوما لجلسائه هل تعلمون أحدا من العرب يأنف أن تخدمه أمى قالوا مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبى فإن أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على مافى نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هنداً بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم فى فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعاما وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند فى القبة وقد قال ابن هند لأمه إذا فرغ الناس من الطعام فنحى خدمك عنك فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومريها أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى: واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق فى السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال فى ذلك شاعر التغلبيين:

لعمرك ماعمرو بن هند وقد دعا   لتخدم ليلى أمه بموفق

فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا   وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم فى معلقته:

بأى مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

بأى مشيئة عمرو بن هند   تكون لقيلكم فيها قطينا

تهددنا وتوعدنا رويدا   متى كنا لأمك مقتوينا

فإن قناتنا ياعمرو أعيت   على الأعداء ـ قبلك ـ أن تلينا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام - الإمارة بالحجاز - الحكم عند العرب

الملك بالشام

فى العهد الذى سار فيه عرب اليمن إلى ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد بن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة إلى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدونى وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكا، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهدا طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحى الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب فى المملكة الرومانية ويسمى فى تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م.

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان لبنى جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحى.

وكان حسان بن ثابت كثيرا ما يمدحهم لأنه ينتمى إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ماتهر كلابهم ✽ لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهى واد وراء الأنبار على طريق الفرات - إلى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الأعرج بن أبى شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة فى هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذى بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفى هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم.

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولى بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضا.

الإمارة بالحجاز

كان يلى أمر مكة ولاة من جرهم قحطان - وهى جرهم الثانية - ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه إبراهيم صاهرهم، وكان لأولاد إسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شىء. ولما ارتحل الأزد من مأرب بعد السد، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ✽ أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى: نحن كنا أهلها فأبادنا ✽ صروف الليالى والجدود العواثر

ووليت خزاعة أمر مكة حينا من الزمن، وفى وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا فى نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقى بمكة أولاد فهر بن مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصى بن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة، ومالم يبق إلا أمر ولاية البيت أخذه قصى من سادته المكنى بأبى غبشان وهو صهر قصى، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التى كونها من عصبية فهر

ابن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والأمر النافذ فى مكة ، وصار الرئيس الدينى لذلك البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصى تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصى من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم .

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهى حجابة الكعبة لايفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمر خدمتها.

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشىء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة . والرفادة طعام كان يصنع للحاج ـ على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصيا على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذى تخرجه كل سنة .

كان كل ذلك لقصى بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد فى حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبد الدار الذى كان أسن من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه . ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح التى رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بنى العم ، وسببه المنافسة فى الشرف وافترقت قريش فرقتين : فرقة تساعد بنى عبد مناف وفرقة تساعد بنى عبد الدار: وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة ، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف فكان هو الذى يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الإسلام والأمر على ذلك .

وكانت لقريش مصالح أخرى لاتساوى هذه فى العظم ـ وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش

حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ماحفظ قريشاً مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بعصبية الحروب لم يسلموا من المنافسة التى تكون حتما بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد مايساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبدمناف وابن أخيه أمية بن عبدشمس فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى فى قومه. وكان أمية مثرياً من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوما إلى حد شبوب القتال بينهم لأن البيت القرشى كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامى الذى نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ إليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترئ عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم؛ فمن هنا كان التحكيم فى الأمور العظيمة من مألوف عادتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده

ومما امتازت به قريش حلف الفضول. وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لافرق فى ذلك بين قرشى وغيره، وهى روح تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها.

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب فى بواديهم

كانت القبائل فى نجد، ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة وما كان منها فى بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكما ملوكياً يقيد حريتهم التى ليس عندهم مايعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال

وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فتى وجدت هذه الصفات فى رجل ساد العشيرة كلها، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء، تقيم بإقامته وتظعن بظعنه، وإذا دعا الحرب لاتتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفى والنشيطة والفضول : فالمرباع ربع الغنيمة والصفى مايصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطة ماأصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم، والفضول مافضل من السقمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان .

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد، وكان بيت قيس فى الجاهلية فى بنى فزارة ومركزه حذيفة بن بدر، وبيت تميم فى بنى دارم ومركزه حاجب بن زرارة، وبيت ربيعة فى آل ذى الجدين، ومركزه قيس بن مسعود الشيبانى : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان مايشبه سلطان الملوك فى رعاياهم إلا أنهم كانوا لايتتوجون حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لاتسأله فيم غضب ! وكان فى بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدى له خراجاً كل سنة، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس - من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فإنهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة .

وممن ساد من العرب هوذة بن على الحنفى سيد بنى حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمى - سيد عبد القيس، وتميم بالبحرين .

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة فى السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير فى قلب العربى يحركه كما يحرك الهواء ريشة فى الجو .

المحاضرة الخامسة

الحال الأدبية

الأخلاق ـ اللغــة

الأخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشي واللعب النظامى

عموم الأخلاق

لا يحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفا عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذام الأمم ـ التي بها تستحق السقوط والخذلان ـ أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى فى الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه فى الجريمة ، فإن كان الشر معروفا عن فرد أو جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها ، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الأمة : كذلك لا يحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفا عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم إلا مستسراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير فى بيان الأخلاق عند العرب .

من الأخلاق التي كانت للعرب سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج فى هيجه إلا إلى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زأر كالأسد خرج من مكمنه لا يتريث حتى يستطلع جلية الأمر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق أكثر ما تراه فى قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ولا أحكاما قاسية من جزاء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون

النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير فى طريق الحروب بقليل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربى كما فى كل أمة وأرقاها درجة فى التأثير . يالفلان . واذلاه ، وانصيراه ، شرف الآباء ، وماشاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شىء من بلادة الطبع التى تجعل صاحبها يألف سماع مايهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لأن النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه .

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا فى سادتهم وذوى الأسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون .

ومن أخلاقهم التعصب ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة فى حال العرب الاجتماعية ، وقد سمى القرآن هذا الخلق وماقبله حمية الجاهلية لأن فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومثن على غيره * كان الواحد منهم يأتيه الضيف - فى شدة البرد والجوع - وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ماً سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم فى الكرم أن سالم بن قحفان من بنى العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيرا ثم طلب من امرأته حبلا يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه . ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلا ! فقال لها علىّ الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فقال :

لاتعذلينى فى العطاء ويسرى لكل بعير - جاء طالبه - حبلا
فإنى لاتبكى علىّ افالها إذا شبعت من روض أوطانها بقلا
فلم أر مثل الإبل مالا لمقتن ولامثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته :

حلفت يمينا يا ابن قحفان بالذى تكفل بالأرزاق فى السهل والجبل

تزال حبال محصدات أعدها ... لها ماشي منها على خفه جمل

فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالبا ... فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويرى المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والأضياف - من ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام - مايثلج الصدر .

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم دينا يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم . انظروا إلى مافعله هانىء بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهى الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك ، ثم انظروا إلى مافعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده ، وفي ذلك يقول الأعشى مخاطبا شريح بن عمرو الكلبي :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار

بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار

خيره خطتي خسف فقال له ... اعرضهما هكذا أسمعهما حار

فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر . وما فيهما حظ لمختار

فشك غير طويل ، ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانع جاري

وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ... رب كريم وبيض ذات أطهار

فاختار أدراعه أن لا يسب بها ... ولم يكن عهده فيها بختار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زراة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب ، والقوس في الحقيقة لايمنعه رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيمته الغدر . وإنما خاف السبة على بنيه من بعده - إذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الأمة العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأساً بين العرب .

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فإن

خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لا محيص عنهما .

ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون فى الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدما على الأبناء والإخوان . ومن ذلك أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمى إنه له جار فحدث أن كان بين قرين بن سلمى وبين أخى الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين ، وكان عمير غائباً فأتى الكلابى قبر سلمى أبى عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابى أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق إلى الكلابى جميع ماله ، فأبى الكلابى أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع الوادى فربطه إلى نخلة وقال للكلابى : أما إذ أبيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادى وأرتحل عن جوارى فلا خير لك فيه فقتله الكلابى . وفى ذلك يقول عمير :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير :

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فإنهم كانوا يخلطون حلفاءهم بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التى عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التى دخل فى حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش فى الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضنون ببناتهم عن أى قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب لهن كفؤا إلا من دخل فى حلفهم ومن أخلاقهم التى كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهى قوة فى النفس تحمل صاحبها على الإقدام على المكروه ، وباب الحماسة فى أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر فى جميع الأفراد أما الكرم فإنه لا يظهر أثره بجلاء إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم فى شدة اليأس وقوة القلب ، وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم .

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها فى أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقا عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم فى أبواب الأدب يجد

من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئا كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم أن هذه الأمة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش — لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم : ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح .

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر ! ؛ وكانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه وكانت طريقتهم فى لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار إلى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح وهى عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول وهى عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الأول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهى إلى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح إلى رجل أمين يقال له أمير المقامرين فتدفن فى الرمل أو توضع فى خريطة ويلف على كف الأمين قطعة من جلد لئلا يحابى أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قدحا : ولنفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فان خرج التوأم فلصاحبه جزآن ، ثم تضرب القداح فإن خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وإن خرج فى أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقى واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأن مايستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقى ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقى أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأن منها النافس ، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقى ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان ، ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل

من ربح فى جزور ليس عليه من ثمنها شىء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهى لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى . وكذلك ثمن الثالثة والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التى أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الإسلامى وهذه المفسدة هى أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شىء

ومن عاداتهم التى يتمدحون بها — شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها فى الشعر العربى باباً من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ما قيل فى شربها من جهة الأسلوب اللغوى قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر بالشمال مفـدم
فإذا سكرت فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

والشرب - فى وقت عنترة هذا - كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحا ويسمى الصبوح .

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر فى التحريم ، لأن المنفعة فى كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاه) وهذا إثم يربو على كل منفعة .

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها فى مبحث الدين

لغـة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب فى جزيرتهم مذ حلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون فى التاريخ بالعرب العاربة لأصالتهم فى العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التى سارت إلى مكة واحتلتها قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهى الثانية من اللغات السامية وأمه

هاجر امرأة مصرية . أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل فى اللغة العربية بعض ماحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ماتحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب مايسهل على اللسان العربى وهذا أمر يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لايمكنهما أن ينسيا بالمرة ما فى أنفسهما من الكلمات المحفوظة وإذا احتاجا إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة فى لسان جرهم يفزعان إلى مامعهما وهذا مشاهد فى تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم فى العربية ليس أصلهم منها .

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربى الحميرى وهو لغة العرب الأصلية والفرع العدنانى أو الحجازى وهو لغة بنى إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لايختلفان وإنما الخلاف فى ألفاظ يستعملها الحميريون ولايستعملها الحجازيون وبالعكس والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلابة لايجدها فيما يرادفها من الألفاظ الحجازية .

معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون فى بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب مايعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على مايقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعانى المعقولة استدل عليها بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية فى حركة مستمرة ونمو سريع .

وكان للعرب فى توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول ـ تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحيانا وربما اختلفت مواضعتهم فيجىء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة فى المسمى وبهذا يجىء ما يسمونه بالترادف وأكثر مانجده فى أسماء الأشياء التى هى عند عامتهم لايستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وماشاكل ذلك .

الثانى ـ التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشىء الجديد فيجدون بينه وبين شىء آخر له اسم عندهم ارتباطا أو تشابها فيطلقون لفظ الأول على الثانى ومع تطاول الزمن ينسى أول الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت فى أصل اللغة وضعا

ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ما تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع ، وللعرب فى هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عنى بلغتهم ، وكانوا دائما يكنون عن المعانى التى لايرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف . ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة فى المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتا ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعانى بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة .

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة مايلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهى المسماة فى اصطلاح البيانيين بالكنايات .

الطريق الثالث - طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم فى التعريب الشأو الواسع ، لأن العرب اشتغلوا بالتجارات والأسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش . وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت فى اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربى فإن هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التى إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهى عكاظ ومجنة وذو مجاز

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى عشرين منه ومجنة بمر الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذى القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذى الحجة ثم يعرفون فى التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر مايستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا فى المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذى كان أبوه ملكا فى نجد على بنى أسد وشعراء الاوس والخزرج

الذين كانوا بالمدينة وطيء وكلب المقيمين فى شمالى الجزيرة .

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريباً لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم للأمم الأخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال اللغة لايحتجون بمثل عدى بن زيد العبادى الحيرى وأمية بن أبى الصلت الثقفى لأنه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات فى اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك .

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهى سعتها وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعانى فكانت وافية بحاجتهم على قدر مااتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها مايرى المتكلمون بها أنفسهم فى حاجة إليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا فى استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والأسماع وهذا مانحس به فى هذه اللغة الجميلة .

جاء الإسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها فى عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون فى مواقفهم المغدودة لهم بماأوتوه من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هى رزقت شاعراً يناضح عنها فى المجامع وربما أولمت الولائم فرحا بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ماليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق .

ومن أراد أن يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب فى جميل المعانى فليطلع على مااختاره أبو تمام الطائى من شعر العرب وعلى ماجمعه أبو على القالى فى أماليه ، وما جمعه أبو العباس المبرد فى كامله ، وما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فإن مافى هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً فى جانب الذهب الوفير .

المحاضرة السادسة

الكتابة ـ العلوم ـ الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الأفراد وإنما كان فى الخاصة منهم كما كان الشأن فى الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلا سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة فى هذه الجهات الثلاثة ليست بالشيء المتداول الذائع .

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت لترى فى ذلك سمة عيب كما هو شأنها فى بقية صناعات المدنية .

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها فى أفراد قليلين يسهل أن نعبر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أى لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير فى اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت نمت ، لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد فى المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا أو بعضاً وربما فاتهم الشيء منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا ، وهذا سبب لما نراه فى بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات ولكون الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقى لنا منه أكثر مما بقى من نثرهم وخطبهم فى المحافل والمجامع .

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم إلى طريق ترقيتها كما يأتى بيانه .

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنبا لجنب لأن الإنسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع مايسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ماكان منها مختصا بما هم فى حاجة إليه وكانت الحاجة فى حواضر العرب أكثر منها فى باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البادية. كانت حاجة العربى فى باديته تنحصر فى الماء الذى يحتاج إليه ويصله من السماء ثم فى جمله الذى هو عدته ثم فى ملبوسه البسيط الذى يقيه حرّ الصيف وبرد الشتاء ثم فى بيته الشعرى، ثم أداة حربه وقلما يحتاج إلى أكثر من ذلك.

فأما حاجته إلى المطر فقد أكسبته ملاحظة الجوّ وتغيراته ومانفبئ عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإنذار بالجدب وقد كانت لهم فى ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالأنواء [1].

---

(١) قسم العرب المنطقة التى تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثنى عشر قسما وسموا كل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة فى جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها فى الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ماتخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى فى الشمال هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والتى فى الجنوب هى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت.

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالا أخرى وهى التى يتقلب فيها القمر فى مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هى المنازل ـ السرطان والبطين ـ النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ النثرة ـ الطرف ـ الجبهة ـ الخراتان ـ الصرفة ـ العواء ـ السماك ـ الغفر ـ الزبانى ـ الاكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم البلدة ـ سعد الذابح ـ سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الأخبية ـ فرع الدلو المقدم ـ فرع الدلو المؤخر ـ الحوت.

وبعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبتدئ القمر فيعيد التقلب فى هذه المنازل كالمرة

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب مارواه صاحب الأغانى قال خرج أعرابى مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعى غنم لهما فقال الشيخ إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى . فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها بعد ساعة إنى أجد ريح النسيم قددنا فارفعى رأسك فانظرى قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعى واحذرى ثم قال لها بعد ساعة إنى لأجد ريح النسيم قد دنا فانظرى فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال ارعى واحذرى ثم مكث ساعة وقال إنى لأجد ريح النسيم فماترى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فويق الأرض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح

كأنما بين أعلاه وأسفله * ريط منشرة أوضوء مصباح

فمن بمحفله كمن بنجوته * والمستكن كمن يمشى بقرواح

قال انجى لا أبالك : فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما .

وحاجتهم إلى إبلهم أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم فى معرفة ذلك حظ وافر كما إنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الإنسانى ومعرفة أمراض الإنسان التى تنتابه فى الصحراء من أنواع الحمى التى لابد منها لمن يقيم حول منابع الماء متعرضاً لبرد الليل وحمارة القيظ وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها .

وكان للكى بالنار فى أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد

الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية .

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءا وفى كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علمائهم إنه لا يسمى نوءا إلا إذا كان معه مطر ، فان لم يكن مطر فلا نوء وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه إلى الساقط وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها مايتبع النوء من الحوادث الجوية مثلا قولهم الصرفة ناب الدهر لأنها تفتر عن البرد أو عن الحر فى الحالين . وإذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه

لأمراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الأطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئا من الطب من حواضر البلاد الأخر .

وحاجتهم إلى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة إن قالت إنى صناع اليد فإنما تعنى بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسج فى حواضرهم وأكثر مايكون فى بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية .

وحاجتهم إلى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار اللائق أن تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط فى البحرين ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية ، أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحى العراق والأبلة وكانوا يسمون ناحية الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق .

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب إبلهم ومايملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن فى البادية حساباً منتظماً بأرقام وقواعد تعلم وإنما كان حساباً أرقامه الأيدى ولهم طرق معروفة فى بيان كل عدد .

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهى نوعان الاستدلال بأثر الماشى عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكما فى الآثار والإنسان كبنى مدلج . وللعرب فى معرفة الأثر أعاجيب لايكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذى يرى مابقى منها بين أعراب السودان لايقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك فى إظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون . قال جكسون باشا مدير دنقلا فى تقريره لسنة ١٩٠٥ :

« وللمهارة الفائقين فائدة كبرى فى اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالا من ذلك - فى إحدى الليالى سرق صندوق سكر من حانوت فى مروى ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان فى صبيحة اليوم التالى وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة

وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين إن الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير أيضا واتضح أن حمار المفتش هو الذى ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أن باقى السكر دفن فى مكان قريب من الاصطبل ، ولما جىء بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا إنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش » .

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا مانسمعه من أعاجيبهم .

وكان لهم فى النوع الثانى ما لايقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكما فصلا قائلا هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً وينفى هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ولايهمه إن كانا قد اتفقا فى اللون أو اختلفا فيه .

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبى صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم فى الأنساب إذا تعدد المدعون .

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ مايرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها فى حياتها ونباهة الأمة أس من آساس رقيها .

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين : أما الأول فهو شهود الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب .

الثانى : شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التى بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شىء لأنه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة فى عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر فإن كان حياً فهو الوسيلة وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر

أو ماشاكل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها فى حياته

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجماد نافع أو ضار لأن القوة التى أعطيها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذى على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقوة تتصرف فى العالم شىء يكاد طبيعياً فى الإنسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوى المدبرة والأشخاص التى يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع : الانسان متدين بالطبع حتى أنك لتراه إذا ألحد فى دينه وازدراه ينتقل منه حالا إلى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر .

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق الموصلة إلى إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان - هو إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس و يدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده وكانت النبوة فى فرعين من ولده : الأول إسحق ومنه كان جميع أنبياء بنى إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذى منه كان جلة الملوك من إسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة إلى الناصرة وهى أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصرى و نصرانى وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصرى والفرع الثانى كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة إبراهيم . كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام فكانت اليهودية فى بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعا لدعوة حبرين يقال إنهما أتيا من تبع الحميرى من يثرب وكانت أيضاً بيثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التى كانت تتوالى على اليهود فى شمال صنعاء وفى جهات من البحرين وفى الحيرة لما تنصر النعمان ، وفى قبائل من طيىء وفى عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا

الدين إلا أن المتدينين من العرب بالدين المسيحى لم يكن لهـذا الدين تأثير حقيقى فى نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هى السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب. ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائى وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إنى على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شىء من الدين المسيحى بل ولا اليهودى لأن اليهودى يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحى يبتعد عن الحرب.

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أن إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم، ولما سار عمرو بن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التى كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوى الأثر الصالح فيهم؛ أو تمثيل القوى التى يألفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها ومما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبى فى وصف ودّ وهو صنم عذرة نقلا عمن شاهده من رجال عذرة؛ قال كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل - فهذا يشبه أن يكون تمثال قوة الحرب التى يعظمها العرب - وكان لهذيل صنم اسمه سواع فى رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بنى لحيان - وكان لمذحج وأهل جرش يغوث. واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن - واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هوّدهم ذونواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً.

ويظهر أن هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة فى العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لأن نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد فى الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا).

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر أنها لم تكن تمثالا وإنما كانت أثرا من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها .

ومنها العزى ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بنى سليم .

ومنها ذو الخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة .

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة .

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه كما قال فى الكتاب (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وكانوا إذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهى الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التى يدعونها النصب والأنصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفردا فقال فى كلمته التى يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذا النصب المنصوب لاتنسكنه لعافية والله ربك قاعد

ولهم طرق فى توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبنى إسرائيل مايشبه هذه الطرق وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزوبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم والسائبة التى ينذر الرجل أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن إصاب أمرا يطلبه

فإذا كان ذلك أساب جملا من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها والوصيلة التى تلد أمها اثنين فى بطن فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به .

والحامى الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب ظهره ، ولم يجز وبره وخلى فى إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك - هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة فى تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقة فى عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التى نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة فى القرآن فقال فى سورة المائدة (ماجعل الله من بحيرة ولاسائبة ولاوصيلة ولاحام) .

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام . والزلم القدح الذى لاريش عليه ، والأزلام كانت لقريش فى الجاهلية مكتوب عليها أمرونهى وافعل ولاتفعل ، وقد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحا أتى السادن فقال أخرج لى زلما فيخرجه وينظر إليه فإذاخرج قدح الأمر مضى على ماعزم عليه ، وإن خرج قدح النهى قعد عما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما فى قربة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطلب الإنسان ماقسم له من جهتها وكان فى الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسمعيل وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها .

ومع ماكان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق إجلالهم لأى معبود آخر لهم يرون أنها أثر أبيهم إسماعيل وكانوا يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكان الكعبة هى بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمره هم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلى أمراً من الأمور الدينية بمكة .

وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لأحد العرب مثل حقنا ولامثل منزلتنا ولاتعرف العرب مثل ماتعرف لنافلاتعظموا

شيئا من الحل كما تعظمون الحرم فانكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ماعظموا من الحرم ، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يقرون ويعترفون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لاينبغى للحمس يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولايدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا - إن استظلوا - إلا فى بيوت من الأدم ماكانوا حرما ثم قالوا لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجا ؛ أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أوامرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً : وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى فحملوا على ذلك العرب فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الأول (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) وقال عن الثانى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

المحاضرة السابعة

النسىء - الموحدون من العرب - المولد النبوى - الحال قبل النبوة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن فى مكة كما كان يعلن فيها النسىء :

والنسىء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت ، ورجل ناسىء من قوم نسأة قال فى لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول أنا الذى لا أعاب ولا أخاب ولا يرد لى قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً . أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الإنساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

ألسنا الناسئين على معد ؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو على القالى فى أماليه فسمى الناسىء نعيم بن ثعلبة وقال فى آخر عبارة فإذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً - وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام فى سيرته : والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهور على العرب - فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم - القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم إنى قد أحللت لهم أحد الصفرين : الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال فى ذلك عمير بن قيس جذل الطعام أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن

كنانة يفخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معد أن قومى كرام الناس أن لهم كراما فأى الناس فاتونا بوتر
وأى الناس لم نعلك لجاما ! ألسنا الناسئين على معد ! شهور الحل نجعلها حراما

هل هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجرى من النسىء قبل الإسلام إلا أن بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكى المتوفى سنة ٢٧٢ فسروا النسىء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذى استعمله العبرانيون فى سنتهم القمرية فإنهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية إنها بالكبس أو هذا النسىء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربى إلا فى فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لا ارتباط لها بدورات القمر . وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفى صدرهم محمد بن أحمد البيروتى المتوفى سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودى الذى قال فى مروج الذهب وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسىء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخى العرب اختلاف بين الأجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسىء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ومنهم من اختار التفسير الثانى : وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة فى ذلك العالم الفلكى محمود باشا الشهير بفلكى فى رسالة له سماها نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها أن العرب قبل الإسلام لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسىء عندهم إلا بالتفسير الأول وأظهر أن الخطأ فى ذلك واقع فيه لأول مرة أبو معشر [1] وتبعه البيروتى [2] ثم من بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقى مجالا للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسىء فى كتابى نور اليقين بما فسره به .

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبى معشر البلخى سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروتى الخوارزمى المتوفى سنة ٣٣٠

ولما تبين لى وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسىء بأنه زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله - والنسىء بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التى هى غارات وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسىء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظاما ثابتاً انتهجوه فى تقويمهم لبقاء الأشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاما والتحريم عاما للمواطأة عدة ما حرم الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالا لتلاعب النسأة بدينهم .

ومن الغريب أن المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تكبس قال فى تفسير الربيعين : إنما سمى بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فإن قيل قد توجد الدواب ترتبع فى غير هذا الوقت قيل قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمها فى ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون - كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسىء عند العرب كان عملا يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين .

على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقهم التى هم عليها لا توصلهم إلى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لا ضر فيها ولا نفع

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم . فالقرشيون ورقة بن نوفل الأسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الأسدى من أسد بن عبد العزى ، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد بن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا : تعلمن والله ما قومكم على شىء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا

لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء : فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب .

وأما زيد فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه يبعث أمة وحده ، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى جاء الاسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى مات هناك نصرانياً .

وكانت لاتزال كهان العرب وذو الأسجاع منهم يهتفون بذكر نبى حان مبعثه ولا يبعد أن أخبارهم هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذى امتازوا به فى ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر فى ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولايزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوئهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج وقد روى ذلك عن بعض الأنصار ، من هذا يفهم أنه كان قبل مجىء الاسلام فى حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء ما من التغير فى عبادة الأوثان ، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة ، ولكنها جعلت فى الأنفس شيئاً من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامى .

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله أولاد أشراف عظماء ، منهم

أبو طالب وعبدالله وحمزة وعباس وأبو لهب . وعبدالمطلب ذو السن من بيت عبد مناف الذى هو أشرف بيت من قريش .

اختار لولده عبدالله آمنة بنت وهب وهى من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبدالله فى مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام ، فلما وصل المدينة ـ وبها أخواله من بنى النجار أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما كان بنو النجار أخواله لأن منهم أم أبيه عبدالمطلب .

وفى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان . ويوافق العشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكى محمود باشا ـ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفا عندالعرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد أشراف تميم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمى الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون أن اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبدالمطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبى منتظر من العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون .

كانت العادة عندالحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية لأمرين (الأول) إنهم يبتعدون فى البوادى عن أمراض الحواضر التى كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم لما فى هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثانى) أنهم يتقنون اللسان العربى فى مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتا وأسلس عبارة

قد اختير لمحمد بن عبدالله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبى ذؤيب وزوجها هو الحرث بن عبدالعزى المكنى بأبى كبشة من قومها فأقام مسترضعا فيهم قريبا من أربع سنوات ثم ردته إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة .

كانت لآمنة عادة مذ توفى زوجها عبدالله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما

هى راجعة إذ مرضت فى الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبدالمطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً ، قال ابن هشام كان يوضع لعبدالمطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب - إذا رأى ذلك منهم دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ماراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفى بمكة جده عبدالمطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبى طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبدالله أولاد عبدالمطلب كانت أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - أو ثلاثة عشرة - خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصلا بصرى وهى معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان فى هذا البلد على ما ننقله من كلام مؤرخى العرب راهب اسمه بحيرا فى صومعة له فكان له حديث مع أبى طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفاً عليه من عدو يترصده وأخبره أن له شأناً فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبرى فى كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام أو بصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده .

ولخمس عشر من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً وكان رئيس بنى عبدالمطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان ينبل على عمومته أى يجهز لهم النبل للرمى . وحدث بعد ذلك تداعى قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لايجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته وتم ذلك الحلف فى دار عبدالله بن جدعان التيمى وشهده سيدنا محمد بن عبدالله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بنى أسد ابن عبدالعزى وكانت سيدة محترمة فى قومها ذات يسار تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبدالله مشهورا فى قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين فعرضت إليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عاد إلى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهرى أن هذه الرحلة التى ذهب فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشة باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر.

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمسا وعشرين وهى أم أولاده جميعاً ماعدا إبراهيم الذى ولد له بالمدينة فإنه من مارية القبطية التى كانت من قرية حفن من كورة انصنا.

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا ولها فى تاريخ الإسلام أجل ذكر وأصدقه وسيتضح بعد.

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش الكعبة وتجديد بنائها فانها كانت وضيعة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شىء ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا فى البناء على قواعده والذى تولى البناء بناء رومى اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع وصعدوا بها فى الجو حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبدالله فطلب رداءً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠,١٠ م والحجر موضوع على ارتفاعه ١٠,٥٠ م من أرضية

المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٠,٢٥ م ومتوسط عرضها ٠,٣٠ م وتسمى بالشاذروان وهى من أصل البيت ولكن قريشاً تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانونى فيما كتبه عن الكعبة فى رحلته الحجازية التى اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم محدث إما فى عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف

للكعبة أربعة أركان: الشمالى واسمه الركن العراقى، والغربى واسمه الشامى، والجنوبى واسمه اليمانى، والشرقى واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتماريج صفراء وهى أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠,٣٠ م والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت ويبعدان عنها ٢,٣٦ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١,٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ١,٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان فى الحجر

السيرة الأدبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبدالله كان فى قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم. وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالا بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلا وكان عمله حين شب: التجارة. ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها فى الربح وكان يشارك غيرها أحياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين فى موضع البحث وهى هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هـــذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه.

فقال جمهور منهم إنه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بأنه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعى على نقله ولم ينقل شىء من ذلك

وتوقف فى الرأى بعض الأئمة كالغزالى وشيخه إمام الحرمين والآمدى لأنهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم فى مثل تلك المسألة .

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ماهى تلك الشريعة اختلفوا فى تعيينها فمن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أوموسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهواختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأى ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدهم وإنما هى مجرد أفكار .

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهبا مبهما وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموما وخصوصا ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد و بلغه ذلك المتعبد به وقال إن هذا الدليل يوجب التعبد فى غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقى والذى نراه أن التفصيل فى مثل هذه المسألة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لأن مثل هذا الرأى يلزمه أن الانسان مطلوب منه أن يتطلب جميع الشرائع الماضية التى سبقت ويعبد الله بما يثبت أنه منها ويرجع بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول إنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته رفض الأوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الأخلاق التى فى مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد فى غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذى على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكراً فى خالق الكون الأعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون إنه أول من تعبد فيه .

ولم يعلم عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات فى الشرائع التى سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة فى أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة فى الكتاب (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقال فى سورة الضحى مما امتن به عليه (ووجدك ضالا فهدى) والضلال الحيرة ، والهداية النبوة .

المحاضرة الثامنة

البعثة – الوحى – الدعوة السرية – الجهر بالدعوة

ما كان من قريش – هجرة الحبشة

البعثة

الذى يختارهم الله لإصلاح الأمم يلقى إليهم مايريد أن يبلغوه عنه بالوحى ، والوحى – فى لغة العرب – إعلام مع خفاء وسرعة ، ومعنى السرعة أنّ هذه المعلومات المتلقاة لاتكون نتيجة لمقدمات تنبئ عليها تلك النتيجة بل هى أشبه شىء بالعلم الضرورى الذى لايتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة فى القرآن ، وفى لسان العرب لغير إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا) وقال (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف فى صغره (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) وكل هذا لايعدو معنى الإلهام الذى ربما شعر به كثير من الناس .

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإن العبارة العلميـة تضيق عن تحديد كنهه ؛ وغاية مايمكن الانسان هو أن يحوم حوله ، مستعيناً بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منها مايقرب ذلك إلى العقل الانسانى ، هذا الاعلام له مراتب .

الأولى : أن يخاطب فى النوم وتلك هى الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً فى التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب إلى ابرام فى الرؤيا قائلا . . . الخ .

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله على لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح (يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم « رؤيا الأنبياء حق ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولاتنام قلوبنا » .

المرتبة الثانية : أن يلقى مايراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك

هو المسمى بالإلهام والإلقاء فى الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التى تحدث بالخير وتلقيه فى النفس ملكا على العكس من القوة التى تحدث بالشر وتلقيه فى النفس فإنه يسميها شيطاناً ولفلاسفة المسلمين غرائب فى كلامهم عن الملائكة والشياطين. وقد يستروحون بقوله تعالى فى الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة: أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملاك للأنبياء فى التوراة كثيراً

المرتبة الرابعة: أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العليقة المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى؛ فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى).

هذه هى المراتب التى عرف أن الوحى يبلغ قلوب الأنبياء عليها، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهى ركوز المعانى فى القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضرورياً أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئاً من جنسها لمن فى فكرهم فى أمر أو حادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وإنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس مالايحس به وليس فى مكنتها أن تدرك حقيقته؛ إذا كان الفناء فى مسألة أو حادثة يجعل الانسان على نحو ماوصفنا لكم فكيف بالفناء فى الإله، أنا لا أستغرب ما قرأته فى بعض الكتب أن صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به؛ لأنى أعلم أن الجندى يصاب فى الموقعة بالجرح المؤلم فلايحس به ويمضى لشأنه حتى إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالألم: كل هذا يفهمنا مايكون من الأنبياء عند الوحى من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لايحسون بأحد.

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحى؟ فقال: أحياناً يأتينى مثل

صلصلة الجرس، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ماقال وأحيانا يتمثل لى رجلا فأعى مايقول.

ومما روى أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحى اليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا تكلم فيه على الوحى والرؤى ولكن قلما يظفر الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب.

كان أول مابدئ به سيدنا محمد بن عبدالله من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لايرى رؤيا إلاجاءت مثل فلق الصبح: كما رواه البخارى من حديث عائشة.

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذجاءه الوحى وذلك فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام: وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠. ولامعنى للاختلاف فى تحديد اليوم بالتقويم العربى بعد أن أشار إليه الكتاب إشارة ظاهرة لاتخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (إن كنتم آمنتم بالله وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقدجعله(١) عاما لأول يوم نزل فيه القرآن، وليلة نزول

---

(١) جرت العادة فى التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحدا بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية يبين أنه لايصح أن يراد منها غير هذا لأن الذى فرق الله به بين الحق والباطل إنما هو اختيار الله محمداً لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى إلى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ماوقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكى من الخطأ حيث جعل الرسالة فى ربيع الأول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذى أوقعه فى الخطأ ما فى بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين.

القرآن هى التى قال فيها الكتاب (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) وهذا هو السبب فى تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذى كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكاراً لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهى المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعده عن كثير من التعاليم التى تلقى إلى العامة .

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحى بما أخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟

قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ قال : قلت ماذا أقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال اقرأ قال فقلت ما أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم : الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) .

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا فخرجت حتى إذا كنت فى الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغيا إليها فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ثم قامت فجمعت [1] عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة

---

(١) هذه رواية ابن هشام .

قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل التوراة والانجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع؛ بدأ بالكعبة؛ فطاف بها؛ فقال له ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله.

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التى لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه.

ومما يزيد هذا العبء ثقلا وشدة أنه ابتدئ تحمله فى مكة وهى مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث.

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة - إلى هذا الدين - فى بدء أمرها - سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم - ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد - فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه. يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحرى الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الاسلامى بالسابقين الأولين، وفى مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد. وعلى بن أبى طالب وكان يعيش فى بيت رسول الله تخفيفاً عن أبى طالب لما كثر ولده، وأبو بكر بن أبى قحافة عثمان التيمى، وكان أبو بكر محبوباً فى قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نفراً، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموى والزبير بن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمى؛

ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبى وسعيد بن زيد العدوى وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش . وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى بمكة ، لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخى

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه فى خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين .

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى فى سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجر ذلك إلى تضليل آبائهم فإنهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هى العقبة الصعبة فى سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ما عسى أن يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم . وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب أصول العربية - أن يجير ، فإن فعل كان التعدى على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الاطلاق . فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه فى الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحى .

لما رأت قريش أنه صار فى منعة بجوار أبى طالب مشى رجال من أشراف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو يخلى بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلا فانصرفوا عنه . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبى طالب مرة ثانية قائلين إنهم لايصبرون على هذه الحال ! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ولم

يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له ياابن أخى إن قومك جاؤونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولاتحملنى من الأمر مالاأطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أوأهلك دونه - ماتركته ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لاأسلمك لشىء أبداً .

فلما رأت قريش أن أباطالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة ابن الوليد وقالوا له إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبوطالب لبئس ماتسوموننى أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟! ولما رأى أبوطالب تألب قريش عليه قام فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبدشمس ونوفل - ودعاهم إلى ماهو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربى إلاماكان من أخيه أبى لهب فإنه فارقهم وكان مع قريش ولاأدرى أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال ؟ ولاأظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبى طالب يدعوه إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير فى قلوب العرب بين الإخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شىء ولايبعد عندى أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من الدأعداء رسول الله حتى أنها كانت تذيع عنه الأكاذيب فى مجامع النساء فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة فى قلوبهن . ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت فى السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب .

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة ورأت قريش أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر فى أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون فى تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فإن ذلك

يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم نقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه فقال آخر نقول مجنون ، فقال الوليد ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو بخنقه ولا تخالجه ولا وسواسه : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر فقال آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها ولما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بنى عبد شمس ونوفل وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشىء أبداً وفيها يقول :

كذبتم - وبيت الله - نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم فى بلابل
كذبتم - وبيت الله - نبزى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجىء بسبة ... تجر على أشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبى طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة (١) فمن

---

(١) يقال : فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الردىء من الجيد واستعملت فى الابتلاء والامتحان والاختبار - والمراد بها فى لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه .

لكل من ضاد إصلاحا جهة الرسول أغروا به سفهاءهم وهم العدة فى مثل هذه المواطن فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفى منه مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لا يبالى بما يصنع سفهاؤهم معه .

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه - وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب - قال لهم لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ففروا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة فى الإسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش .

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشى مثواهم وأعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شراً فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون فى منزلهم الجديد !! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشى ويطلبا منه ردهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشى بالهدايا قالا له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءُوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم فى هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شىء أبغض إلى عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشى . فلما أديا الرسالة قال النجاشى لاها إذاً لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا فى بلادى واختارونى على سواى - حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ؟ فإن كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم

ماجاورونى ، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاؤا فقال لهم ماهذا الدين الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل فكلمه جعفر بن أبى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشى أن يقرأ عليه شيئا مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشى هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، فلا والله لأسلمهم إليكما ولا يكادون ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبدالله لا تفعل ! فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشى فقال أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فسلهم عنه فطلبهم النجاشى ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ماعدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود ، فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين : اذهبوا فأنتم شيوم - ومعنى هذه الكلمة بالحبشة آمنون ، ورد على الرجلين هداياهما .

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد .

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب الذى كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمنتقمين ممن أسلم .

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ماروته أم عبد الله بنت أبى حثمة قالت والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه قالت وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال : إنه الانطلاق

يا أم عبدالله قالت فقلت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا قالت فجاء عامر (تعنى زوجها) فقالت له يا أباعبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت فى إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال: فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

المحاضرة التاسعة

فى مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب - هجرة الطائف - العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا إلى حيلة أخرى وهى مقاطعة بنى هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك ، فانحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم.

أقام أبوطالب فى الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهاراً سراً وإعلاناً منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس.

كان فى رجالات قريش من تأثر لحال بنى هاشم وبنى المطلب وأعظمهم فى ذلك أثراً كان هشام بن عمرو ، ومن بنى عامر بن لؤى وكان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف فى قومه فمشى إلى زهير بن أبى أمية من بنى مخزوم ، وقال له يازهير ؛ أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء

وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم : أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً !! قال ويحك يا هشام إنما أنا رجل واحد والله لو كان معى آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟ قال أنا قال زهير ابغنا رجلا ثالثاً فذهب إلى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل بن عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فإنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانياً قال من هو ، قال أنا قال ابغنا ثالثاً قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى أمية قال ابغنا رابعاً فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحواً مما قال لمطعم وأعلمه بما اتفقوا عليه فقال ابغنا خامساً فذهب إلى زمعة بن الأسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد . قال نعم . وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير : أنا أبدؤكم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟!! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق فقال زمعة أنت أكذب ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البخترى صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقربه ، قال المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم .

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهى وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين

متقاربين فى شهر شوال ، وكانت خديجة له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها وكان عمه عضداً وحرزاً فى أمره ومنعة وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا .

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يؤازره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدى رسالة ربه فذهب إلى الطائف - وبها بطون ثقيف - وعمد إلى أشرافهم وذوى الرئاسة منهم وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم رداً قبيحاً فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم ابن عدى يخبره أنه يدخل مكة فى جواره فأجابه إلى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله فى ذلك يقول حسان بن ثابت فى رثاء المطعم لما توفى :

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك مالبى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم فى مواسم الحج داعياً من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدى رسالة ربه فكانوا لايجيبونه إلى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً ، عرض ذلك على بنى عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك ، قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لاحاجة لنا بأمرك ؛ وعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح رداً منهم .

فى ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين الأوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا

وماذاك ؛ قال أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علىّ الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاما حدثا ـ : أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها فى وجه إياس وقال له : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة .

كان عقب انصراف هـذا الوفد أن حصل فى يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها فى التاريخ يوم بعاث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة .

فى الموسم الذى كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان فى أنفسهم شىء مما كانوا يسمعونه وهم فى المدينة من يهودها عن بعثة نبى قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه للنبى الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره .

فلما كان الموسم الذى قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر ـ وافى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلا . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى فى التاريخ ببيعة النساء ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهى هذه الآية (يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إنّ الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ابن قصى

وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم فى المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سببا كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب فى الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الاوس وكان أبوه قائد الأوس فى يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم ، فقال يا بنى الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة ، قال فإن كلام نسائكم ورجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فوالله ماأمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة .

وكان لأسعد بن زرارة الذى نزل عليه مصعب قدم ثابتة فى دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الإسلام صيفى بن الأسلت المكنى بأبى قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه ؛ فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بنى مازن ابن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمر وإحدى نساء بنى سلمة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبدالمطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه - بعد الخروج به إليكم - فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده . فقال المتكلم من الخزرج : قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه

السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر: فقال أبو الهيثم بن التيهان: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعنى يهود المدينة) فهل عسيت: إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ـ أن ترجع إلى قومك وتدعنا، قال: فتبسم الرسول ثم قال: الدم الدم والهدم الهدم يعنى أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. ثم قال لهم: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس فقال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى وها هى أسماء النقباء.

(١) أسعد بن زرارة من بنى النجار بن ثعلبة من الخزرج
(٢) سعد بن الربيع من بنى مالك بن امرئ القيس من الخزرج
(٣) عبدالله بن رواحة من بنى عمرو « « «
(٤) رافع بن مالك من بنى زريق بن عامر من الخزرج
(٥) البراء بن معرور من بنى سلمة بن سعد
(٦) عبدالله بن عمرو « « « « « من الخزرج
(٧) عبادة بن الصامت من بنى غنم بن سالم «
(٨) سعد بن عبادة من بنى ساعدة «
(٩) المنذر بن عمرو من الخزوج
(١٠) أسيد بن حضير من بنى عبد الأشهل من الأوس
(١١) سعد بن خيثمة من بنى كعب بن حارثة «
(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل «

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعا البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الأشهل يقولون إنه أبو الهيثم ابن التيهان: والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم. بعد أن انتهت

المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحالهم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشا فجاء رؤساؤهم إلى منازل الأنصار وقالوا يامعشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله مامن حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ماكان من هذا شيء وماعلمناه وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبي ابن سلول - وهو سيد من سادتهم لم يسلم : إن هذا الأمر جسيم : ماكان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا وماعلمته فانصرفوا عنه .

نفر الناس من منى وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار.

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها فخرجوا أرسالا رجالا ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين .

لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه أجمع لحربهم فلم يبق إلا أخذ الحيطة لذلك .

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم : الرأي أن نحبسه في الحديد ونغلق عليه بابا ثم نتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم فقال شيخ فيهم : ما هذا لكم برأي لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لانبالي أين ذهب ولاحيث وقع إذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

فقال ذلك الشيخ : ماهذا لكم برأي !! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، فقال أبو جهل بن هشام : إن لي لرأيا فيه ما أراكم وقعتم عليه ، وهو أن نختار من كل قبيلة شابا فتى جلداً

نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا . فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فكان رأيه هذا مقبولا عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التى ينفذون فيها ما أرادوا .

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيآ مايلزم لهذا السفر . راحلتين ودليلا خريتاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير فى الليلة التى اتفقت فيها قريش على الفتك به فى صبحها ، وفى تلك الليلة أمر ابن عمه على بن أبى طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد فى وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدى عنه ودائعه وكان كل من عنده شىء يخشى عليه بمكة يضعه عنده .

فى الليلة التى تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج إلى بيت أبى بكر ، وخرجا معا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ثم عمد إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبى بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى فى الغار ليعفى أثر عبدالله بن أبى بكر وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون على بن أبى طالب لا محمد بن عبدالله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل فى طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتا مائة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالا ولكنها عادت بالخيبة .

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل - حسبما اتفقا معه - بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق والدليل اسمه عبدالله بن أريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفاثم مدلجة

لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذى العصوين ثم بطن ذى كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهى من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام.

وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه الصلاة والسلام فنتبعه بفصلين: أولهما فى التشريعات المكية والثانى فى آثار هذه المدة.

المحاضرة العاشرة

التشريع المكى

مكث الرسول فى مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و٢١ يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه فى أثنائها معظم القرآن والذى نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقى - وهو اثنتان وعشرون سورة - نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهى (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١١٠) النصر. وما عدا ذلك فهو مكى

وقد اشتمل التشريع المكى على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبين روحه قوله تعالى فى سورة الشورى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ثم قال ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

امتاز التشريع المكى بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبى فى الموافقات بالتشريع الكلى وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله - من الشرائع الأبدية التى لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - أن يكون متبعاً لها منقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته فى القرآن فى سورة الحج ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم - فى سورة الأنعام - بعد أن قص عليه أسماءهم ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ إلى غير ذلك وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو :

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة .

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعى على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحاً وتلميحاً : ضربت الأمثال بالأمم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل ، وكررت ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة : لأن أشد ما يفعل فى النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب . وأكثر الأنبياء ذكراً فى آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبى معبوداً ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع فى هذا الشرك ، وإيعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال

لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير فى هذه الأنفس التى أشربت حب هذه المعبودات الباطلة

وجز ذلك - بالضرورة - إلى تحريم كل ماذبح على النصب أوجعل فيه شىء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة مالم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماما ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التى يشرع فيها الإنسان لابد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأن الأمر - كما علمتم - يحتاج إلى مقاومة شديدة فإن النفس المتشبعة بالشىء الذى نهيت عنه لايؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شىء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهى وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الأوامر . مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لاشك أنه يحس بحركة فى نفسه تذكره بذلك الإلف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولاينسى الأمر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الإنسانى كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع ، ولذلك لما رأى عمر ابن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التى بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فى الحديبية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها .

(٢) إثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشراً ، وقد نصبت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة فى خيره وكررته تكراراً عظيما يقرب مما كان فى أمر التوحيد والأوثان ونصت على أن العدل سيجرى

بجزاه بعد أن توزن أعمال الإنسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب إذ لا يمكن أن يعقل فى الوجود الإنسانى من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها فى الناس .

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافا ترغب وتخيف وكرر ذلك فى مواطن كثيرة منه .

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنوانا على ما يناله صاحبه مهما دق ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع إلى فعل الخير وأخبرهم أن الحسنة إذا تلت السيئة محتها . والذى يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة فى محو السيئات إنما هى العملية .

(٣) بين لهم الخصال التى تقرب إلى الله والتى تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق والملكات فى معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول فى سورة الشورى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله﴾ ثم يقول ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ .

ويقول فى سورة الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ويقول فى الشورى ﴿وأُمرت لأعدل بينكم﴾ ويقول فيها ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور﴾ وقال فى سورة فصلت ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾ جمع لهم فى سورة الإسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها اقرؤا - إن شئتم - من قول الكتاب ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى قوله ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ وصف عباد الرحمن فى سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ ، إلى آخر السورة ، واستقصاء

ذلك يستدعى وقتاً طويلا وإنما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الأوهام حتى تعلموا بم كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونه ؟؟ فإنه لاشىء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذى أنزل الله عليه

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدنى منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها فى كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحى كيف يؤديها - كما ورد فى الأخبار الصحيحة - والصلاة وحدها هى التى فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلها إنما كان عمليا لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة ، وقد نقلت نقلا عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التى أمر بها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر واعتبر فى سورة الماعون ممن يستحقون الويل ﴿الذين هم يراؤون﴾ وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى فرضت فيه الصلاة ؛ فقال بعضهم : إنها فرضت ليلة الإسراء حينما عرج برسول الله إلى الملأ الأعلى ؛ وقال آخرون : بل قبل ذلك .

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا : الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلا ، ويراد به - فى لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التى وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته . والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السلم المعد له ويراد به صعود رسول الله إلى الملأ الأعلى .

الإسراء : ورد ذكره فى الكتاب فى أول سورة سميت باسمه قال تعالى ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾ وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه فى صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفى مقدمتهم أبو بكر الذى سمى فى ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضاً منهم ارتد .

واختلف المتكلمون فى أمر الاسراء : فروى عن معاوية بن أبى سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وروى عن عائشة أن الاسراء

إنما كان بروحه لأن جسمه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القوانين واحدة ، لأن الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات إذ لم يقل بهذا القول أحد لا عائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله فى حالة النوم على شىء من الآيات التى هى فى جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا - كما قدمنا - نوع من الوحى للأنبياء ويستدل أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى فى السورة نفسها ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس﴾ وقد قال الحسن البصرى راوى حديث الاسراء فأنزل فى ذلك قوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا﴾ الخ

وجمهور المسلمين على أن الاسراء كان بجسمه ويستدلون على رأيهم بأن الاسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ما الذى يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى ما فى الأرض فى رؤيا يراها ؟

بعض المؤرخين يميلون إلى رأى عائشة ومعاوية ، لا لأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة ، بل لأنهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عيانا وصرحوا بمشاهدته فى رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الاسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا فى زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أن أحداً قام فى وجههما رادا عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن إسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل الله فى ذلك (وما جعلنا الرؤيا) الخ وعائشة زوج الرسول - وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة - أدرى الناس بما كان من حوادثه التى أكرمه الله بها ، فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً فى مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم فى وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردون عليه القول رداً شديداً فى أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل . لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب فى أمر هذه الحادثة وجدوه يقول ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾ والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه فى نومه

على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه فى يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلا .

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفى - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون فى أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء فى الكتاب - ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ .

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين : والله أعلم أى ذلك كان قد جاء وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أى حاليه - نائماً أو يقظان - كل ذلك حق وصدق اه .

أما المعراج فلم يرد ذكره فى القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ، ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق فى شرح حوادثه ، لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة مرات منها المرة التى كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحى يقولون بالمعراج الروحى والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلانى فى كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن رأى من يقول بالإسراء الجسمى .

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون فى أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله أن يوحى إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشو الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبى طالب . ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى أول الأمر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين .

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماما فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل

الذى تفعل به . مما فرض بمكة الزكاة فإنا قلما نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة مايخرج من الأرض فى سورة الأنعام ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولا لما فى النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس .

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكيـة أن قارئها يحس فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة مضطهداً فى حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا فى سبيل دعوته فى ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالؤا عليـه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة مما نتلوه عليكم من الآيات ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (١) ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٢) ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (٣) ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (٤) ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾ (٥) ﴿ قل رب إما تريني مايوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ﴾ (٦) ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزؤن ﴾ (٧) ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ (٨) ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون ﴾ (٩) ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ (١٠) ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ (١١) ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ (١٢) إلى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتى ظهر نبؤها بعد حين .

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليـه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحى مشتداً ومنبهاً كما حصل فى حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى فقد حدث أن رسول الله قابل جمعاً

---

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر
(٥) سبأ (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم
(١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله علمنى مما علمك الله ؛ فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعاً فى أولئك العظماء ، فجاءه الوحى بقول الله ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أمّا من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ وهذه شدة أدبه الله بها كما قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

(٥) مما شرع فى آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال .

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعى عناية كبرى فى بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ماشرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة ؛ وبحثنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك نقتصر على ماجاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا .

المحاضرة الحادية عشرة

أسباب شرعية القتال — المواثيق والعهود — أسرى الحرب الاسترقاق - لم شرع القتال ؟

بين الكتاب فى مواضع منه السبب الذى من أجله أذن المؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدى ، الثانى : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن أى باختياره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو بصد من أراد الدخول فى الإسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن :

الموضع الأول - جاء فى سورة الحج ، وهو أول ما أنزل فى أمر القتال ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز، الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ .

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله فى الأرض ذكر. ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى فى الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

الموضع الثانى - قوله فى سورة البقرة المدنية ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل - ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله - فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أُمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم فى دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهى أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حراً فى دينه لا يدين به إلا الله لا خوفاً ولا طمعاً وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من بنى الإنسان. نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء - لا ينبغى أن يتجاوز به ما فعله البادئ بالعدوان ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ﴾ .

الموضع الثالث ـ قوله فى سورة النساء المدنية ﴿ ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما (أولا) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التى يسعى إليها الدين أن لاتكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون .

الموضع الرابع ـ قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانباً : ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لاذبذبة عندهم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ .

بينت هذه الآيات أن لاسبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام .

الموضع الخامس ـ قال فى سورة الأنفال ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ وهذه تؤدى ماأدته آية البقرة .

الموضع السادس ـ قال فى السورة السابقة ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ﴾ .

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لاتكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع .

الموضع السابع ـ قال فى سورة التوبة المدنية ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون

قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ .

بينت هذه الآية سبباً لايخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطعن فى الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخرا وأنتم قد أبيح لكم بمجازاة من اعتدى عليكم .

كان اليهود قد مالئوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء فى سورة التوبة ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ .

كان أمر القتال أولا قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ فالعلة فى هذا الأمر بينها الكتاب نصا وهى اتحادهم على المسلمين ووقوفهم فى سبيل الدعوة .

هذا ماورد فى الكتاب خاصا بأمر القتال ، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعا عن أنفسهم ، وتأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها وأعلن أنه لم يجئ متعديا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سالمه .

ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها ماجاء فى سورة الممتحنة ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصا مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب فى أول سورة المائدة ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقوله فى سورة الإسراء ﴿ وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ وقوله فى سورة النحل ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكونون أمة هى أربى من أمة ﴾ .

وأما الخاصة :

فمنها قوله تعالى فى سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقال فى السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد فى سورة الأنفال ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص .

ومنها أنه لما حضهم فى سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل إليها ،

ومنها أنه جعل فى سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال ﴿ وإن كان - المقتول خطأ - من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ وهذا بعينه هو الذى أوجبه فى قتل مسلم خطأ ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴾ وجعل الدية الواجبة فى قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ .

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها ﴿ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ فجعل حق الميثاق فوق كل حق .

لم يجعل للسلم أمدا بل ذكره مطلقاً فى قوله ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله فى سورة القتال ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ فجعل ماخير فيه أولياء الأمور المن وهو العفو والإرسال من غير شىء والفداء وهو أخذ العوض ولم نر فى الكتاب غيرهما .

وأنا ملزم الان أن أقول كلمة عما جاء فى القرآن فى أمر الرقيق .

كان الرقيق موجوداً بأيدى العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ، فقد قال فى سورة المؤمنين المكية ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ وقال مثل ذلك فى سورة المعارج المكية أيضاً أى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال ، وقال فى سورة النساء المدنية ﴿ فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ﴾ ثم رغبهم ترغيباً شديداً فى تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث .

الأولى ـ أنه جعله فى سورة البلد المكية من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال ممتنا على الانسان ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ﴾ فجعل فك الرقبة فى مقدمة الخصال التى بها يقوم الانسان بشكر نعم الله المتتالية .

الثانية ـ أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعنى أن الإمام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها فى فك الرقاب .

الثالثة ـ أنه جعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال فى كفارة القتل الخطأ ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ وقال فى كفارة الظهار ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ وقال فى كفارة اليمين ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من

صاحب الشريعة فى تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان فى أيديهم منها

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التى سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذى امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله ؛ لأن لذلك علماء هم أدرى به منا ومركزاً غير مركزنا التاريخى الذى يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه .

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفى ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلى الجمعة بمسجد فى بطن وادى رانوناء فى منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مرّ على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يا رسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة (لناقته) حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد ، ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إن شاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه فى بيته ثم سأل عن المربد الذى بركت الناقة فيه ، فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لى وسأرضيهما منه [1] فاتخذه مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ونزل على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه فانتقل من بيت أبى أيوب إليها .

ثم تلاحق المهاجرين فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلا منهم .

ومن أول الأعمال التى عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه وأن

---

(١) روى من طريق آخر أنه قال يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . ويروى أنه أبى إلا بالثمن والذى اخترناه هو رواية ابن إسحق وهى توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخارى .

من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين - ماداموا محاربين - وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ؛ وهكذا قال عن غير يهود بنى عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه .

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول تآخوا فى الله أخوين .

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة التى كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش فى التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة : الأعمال الحربية - التشريع - الأخلاق التى ساس بها أمته .

المحاضرة الثانية عشرة

ودان — بواط — العشيرة — بدر الكبرى — بنى قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركوا مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعيا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التى يذهبون بها إلى الشام والتى يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثنى عشر شهراً خرج فى صفر من السنة الثانية إلى ودان (١)

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم =

وكان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً . أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول ، وفى مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة ابن الحارث فى ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة (١) فلقى بها جمعا من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث فى هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص (٢) فى ثلاثين راكبا فلقى أباجهل بن هشام فى ذلك الساحل فى ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعا للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض .

بواط (٣)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الاول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى .

العشيرة (٤)

فى جمادى الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار (٥) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدا .

سفوان

أقام عليه السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز بن جابر

= لم يحارب ، وما خرج فيه أحد قادته سرية . وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قريبة من الجحفة التى هى على أربع مراحل من مكة وست من المدينة .

(١) ثنية فى شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون منها إلى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام (٤) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد

(٥) واد قريب من ينبع

الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج فى طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان [١] من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفى مقامه هذا أرسل عبد الله بن جحش - ومعه ثمانية رهط من المهاجرين - بأمر غير مفتوح - وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمى حليف لقريش فأتمر بها عبد الله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم؛ وقال ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط فى أيدى القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال.

ولما كثر الكلام فى ذلك جاءه الوحى بقول الله ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ يعنى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع. صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس فى دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين. وفى هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام فى زلة قد ارتكب هو أشنع منها. ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما.

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا

(١) واد من ناحية بدر

من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس نخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حربا وكانت عـــدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ؛ ٨٣ من المهاجرين ؛ و ٦١ من الأوس - و ١٧٠ من الخزرج .

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فأخبر - وهو يسير أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلا يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير فى أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادى - يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة يامعشر قريش أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث - فتجهز الناس سراعا وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا فكانت عدتهم بين التسعمائة والألف ولم يزالوا فى سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادى بدر .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصرى ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى إذا قارب بدراً جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، وقال له المقداد بن عمرو امض يارسول الله لما أراك الله فنحن معك ! والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا علىّ أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار ، لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام فى ديارهم فكان يتخوف أنهم لايرون نصرته إلا على من دهمه فى المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؛ قال

(١) موضع أقصى أراضى هجر

أجل فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ؛ فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ! فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريباً من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالعير وأن قريشا وراء وادى بدر - وكان أبو سفيان قد ساحل بالعير فنجا ، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير ، فأبى ذلك أبو جهل وقال والله لانرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا . ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة تشدد أبى جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا . فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً فى صفوف المشركين زهرى ، وكذلك لم يشهد من بنى عدى أحد . مضت قريش حتى نزلت بالعدوة الوادى الدنيا ، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله وقال : يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! قال : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ماوراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأى وفعل كما قال :

ثم إن سعداً قال للرسول : يارسول الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله مانحن بأشد لك حباً منهم ولوظنوا أنك تلقى حرباً ماتخلفوا عنك

يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

تراءى الجيشان : فلم يكن بد من الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبة وعلىّ بإزاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب فى ذلك النهار ، فإن الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل ابن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون . لما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين . وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما - وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، والآخر - زيد ابن حارثة - إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثانى عقبة بن أبى معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما .

ولما أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز ابن عمير : كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردها على أحدهم فيردها علىّ ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر .

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء

من قريش فى الأسرى ، وكان بعض الصحابة - ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم ، وكان رأى أبى بكر وأكثر الصحابة لايريدون ذلك ، ويريدن قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبى بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبى أن أكل شيئا من الغنائم ، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له ﴿ ياأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ .

علمت قريش بما كان فأرسلت فى فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من من عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحى الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل فى هذه الغزوة من القرآن سورة الأنفال بأسرها وهى السورة الثامنة ، وقد بدأت بأمر الأنفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقى - وهو أربعة أخماسها - للغانمين . وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف ولم يعط منه بنى نوفل وعبد شمس ، ثم قص فى السورة خروج المسلمين إلى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة ان يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش ومافعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله وتكلم فيها عن السلم والجنوح إليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى إلى غير ذلك من الأحكام .

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر إلى حال المسلمين وماأودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فإن عددهم كان ٣١٤ رجلا ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها ، وقريش كانت بين التسعمائة والألف وعندهم من العدة ماليس مع المسلمين

وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم مالا يخفى مكانه . ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم مايستغرب فإن الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهزمت بقيتهم لاتلوى على شىء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده إحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله تثبيتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم فى موقف يدافعون فيه عن أعز شىء فى الوجود وهو رسول الله الذى بين أظهرهم فلا يهم الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة إحدى الحسنيين وكل هذا للمحارب بمثابة إمدادات يراها متوالية الورود .

وقد قيل فى هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ماقيل منه ماقالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث :

يارا كباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بوا كفها وأخرى تخفق
هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لاينطق ؟
أمحمد ولدتك خير نجيبة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ماكان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق ؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - لما بلغه هذا الشعر - لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه .

وكان الفراغ من هذه الغزوة فى عقب شهر رمضان .

الكدر

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفى مقامه هذا فدى جل أسارى بدر .

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه حتى - كان من المدينة - على نحو بريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضار المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج فى عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما ،ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعا وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ماطرح المشركون من أزوادهم التى أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم .

وإنى تخيرت المدينة واحداً لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقانى فروانى كميتاً مدامه على عجل منى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت - ولم أكن لأفرحه - أبشر بغزو مغنم
تأمر فإن القوم سر وإنهم صريح لؤى لا شماطيط جرهم
وماكان إلا بعض ليلة راكب أتى ساعيا من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريبا منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريبا من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلا منه .

الفرع

خرج عليه السلام فى أواخر ربيع الأول يريد قريشا حتى بلغ بحران وهو معدن

بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدا .

أمر بنى قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم - كما قاله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ابن قتادة - وظهر منهم بعد بدر ما كان خافياً من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهراً بحادثة وقعت فى سوق بنى قينقاع ، سببها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعدياً معيباً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهودى فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج إليهم رسول الله وحاصرهم فى ديارهم خمس عشرة ليلة فى آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها :

كان من نتيجة بدر أن قريشاً حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال ، فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهودياً من طيئ ، ثم من بنى نبهان وأمه من بنى النضير ، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذى بهجة تأوى إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشاً لايسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمى على الحسب الكريم الأروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الأنصار فقتلوه جزاء خيانته العهد .

المحاضرة الثالثة عشرة

أحد :

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ، ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحى الذى منّ عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد منّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على أن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصبهن ما أصابهن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير ابن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها ومن كنانة أهل تهامة وخرجوا معهم

بالطعن التماس الحفيظة وأن لايفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة .

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج إليهم أم يقيم فى المدينة ؟ فقال له عبدالله ابن أبى بن سلول ـ وكان رأساً فى الأنصار إلا أنه كان يضمر نفاقا ـ نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله ، لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلى بيته فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال (١) حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يارسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام ماينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام فى ألف من الصحابة حتى إذا كان بالشوط انخذل عنه عبدالله بن أبى ابن سلول بثلث الناس ، وقال أطاعهم وعصانى ماندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال لايقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال ، ثم تعبى عليه السلام القتال وهو فى ٧٠٠ رجل وأمّر على الرماة عبدالله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لايأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وقال أبوسفيان لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار يابنى عبدالدار إنكم قدوليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ماقد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصرى كان أول شوال الأحد فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥)

إذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان .

التقى الناس ودارت رحى الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدى وعلى بن أبى طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسبوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها - إلا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل فى صفوف المسلمين حتى دهشوا ، ومما زاد فى دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلا قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى رمى بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ووقع فى حفرة من الحفر التى حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار يردون عنه العدو ، ثم فاء فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقاتلت فى ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهى ممن بايع بيعة العقبة وكانت فى أول النهار تسقى الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمى عن القوس وجرحت فى ذلك اليوم جرحا شديداً ، وقد امتاز جماعة من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع فى ظهره وهو منحن على رسول الله حتى كثر فيه النبل ومنهم سعد ابن أبى وقاص وكان راميا ومنهم عبد الرحمن بن عوف .

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد الأنصار فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن أنصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا إليه ونهض معهم نحو الشعب

معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح فى هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل أبى بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش فى عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سببا لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد الذى قتل بيده عليه السلام .

ولما انتهى إلى فم الشعب خرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه .

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من عار بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته ـ بحيث يسمعه من فى الشعب ـ وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، اعل هبل ، فقال عليه السلام قم ياعمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لا سواء : قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إلىّ يا عمر ، فقال له الرسول ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله ياعمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر ثم نادى أبو سفيان إنه كان فى قتلاكم مثل والله مارضيت وماسخطت وما أمرت ومانهيت ، ثم نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد وكان الذى يهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون الى مكة فأرسل على بن أبى طالب فقال اخرج فى أثر القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فانهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم فخرج علىّ فى أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة .

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبى سفيان .

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فلقيته فى الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها. ومر بامرأة من بنى دينار من الأنصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله؟ قالوا خيراً ياأم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة.

فى غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بماهم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حمراء الأسد - وهى من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء وقد مر به معبد بن أبى معبد الخزاعى وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لايخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك، فقال يا محمد: والله لقد عز علينا ماأصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الأسد وسار حتى لقى أبا سفيان وأصحابه بالروحاء، وقد جمعوا الرجعة فإنهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له ماوراءك يامعبد؟ قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ماضيعوا فيهم من الحنق عليكم - شىء لم أر مثله قط قال ويحك ماتقول قال والله ماأرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه

والذى اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر فى نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين، وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا

عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع .

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ما تكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة في وادى أحد ، وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر ، فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أبا سفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد ، فقال له صفوان بن أمية بن خلف : لا تفعلوا ؛ فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان ؛ فارجعوا ، فرجعوا .

وعند انصراف الرسول من حمراء الأسد ظفر بأبى عزة الجمحى الذى منّ عليه بعد بدر ، فقال له أقلنى يا محمد ، فقال عليه السلام : والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر بضرب عنقه .

والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلا : أربعة من المهاجرين وباقيهم من الأنصار ، والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلا .

أنزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن : في سورة آل عمران وهى السورة الثالثة من أول قوله تعالى ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ إلى قوله . . . ﴿ فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾

وقد جمعت هذه الآيات أموراً : (١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد (٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم - بألطف إشارة - على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر ؛ وهى الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم (٧) إعلان العفو عن المنهزمين ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما

استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم ﴾ .

(٨) الثناء على شهداء الموقعة والإخبار أنهم ﴿ أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثاني يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيما .

وقد قيل فى هـذه الموقعة كثير من الشعر العربى ، قالته قريش والمسلمون : نقله ابن هشام فى سيرته .

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما فلو أرسلت معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الإسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قدغشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل إنا لانريدقتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لانغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون . فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعاً بمكة فقتلا هناك وقال أبوسفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة - حين قدم ليضرب عنقه - أنشدك الله يا زيد ؛ أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك يضرب عنقه وأنك فى أهلك ، قال والله لا أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى فيقول أبوسفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

حـديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفر من السنة الرابعة أبوبراء عامر ابن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامرى فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم

ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام إنى أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدى فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبى براء فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم : عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم فى رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن أمية الضمرى لأنه كان فى الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو .

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبى براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ثم قال لعمرو : لقد قتلت قتيلين لأدينهما .

المحاضرة الرابعة عشرة

إجلاء بنى النضير ـ ذات الرقاع ـ بدر الآخرة ـ الخندق وقريظة ـ بنى المصطلق

إجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام إلى بنى النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن

رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقى الصخرة كما قال - ورسول الله فى نفر من أصحابه - فجاءه الوحى بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه فى الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها .

أرسل جماعة من منافقى أهل المدينة إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم مااستقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

ونزل فى أمر بنى النضير من القرآن سورة الحشر وهى السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وماكان من المنافقين الذين راسلوا بنى النضير ثم عين حكم الأموال التى تركوها وسماها فيئا وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله ﴿لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ ثم عذر المسلمين على مافعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد ، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ماقدمت لغد .

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة فى جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بنى محارب وثعلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلا لقى بها جمعا عظيما من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضا حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهى موعد أبى سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدراً وأقام ينتظر أبا سفيان أمّا هذا فإنه خرج بقريش

حتى بلغ مجنة أو عسفان ثم بدا له فقال أيها الناس إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا فرجع الناس ،وكان ذلك مما أخذه الناس على أبى سفيان لعدم وفائه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون .

الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بنى النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم جماعة من بنى وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشاً ونشطوا لما دعوهم إليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وإن قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فى بنى فزارة والحرث بن عوف فى بنى مرة ومسعر بن دخيلة فى بنى أشجع بن أريث .

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسى وقاسى المسلمون فى حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكموه ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذنب نعمى إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى الآطام .

خرج حيي بن أخطب النضيرى حتى أتى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة ؛ وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ثم قال - إنى قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نعمى وقد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل

محمداً ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك ياحيي فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه ؛ فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقالوا : لا عهد بيننا وبين محمد ؟ فشاتمهم سعد بن معاذ ، وكان رجلا فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين .

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار ، ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزاري والحرث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين ؛ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا يا رسول الله أمراً نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر .

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعى فقال يارسول الله إنى أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى فرنى بما شئت فقال له عليه السلام : إنما أنت رجل واحد فخذل عنا مااستطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديماً فى الجاهلية فقال يابنى قريظة قد علمتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم وإن قريشا ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ! قالوا : لقد أشرت بالرأى ، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب ـ ومن معه من رجال قريش ـ قد عرفتم ودى لكم وفراقى لمحمد وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىّ حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم ـ إن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من القبيلتين فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى تناجز محمداً فقالوا لهم : إن غداً السبت . وهو يوم لانفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم أحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودبّ حينئذ إلى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح فى ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم .

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم فى ذلك الليل فإذا أبو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة و بلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ماتطمئن لنا قدر ولاتقوم لنا نار ولايستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التى علمتهم كيف يخندقون على ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة فى ملاقاة الأعداء واضطروا ـ بحكم ماهم فيه من الشدائد ـ أن يستعينوا بالخدع التى تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بنى قريظة لاعهد لهم ولارادع عما استكن فى أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع .

لذلك أمر عليه السلام ـ بعد انصراف الأحزاب ـ أن يتوجه المسلمون إلى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكما يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبدالله بن أبى فى مواليه من قينقاع بإجلائهم فلم يرض .

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام فى هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد هرقل كسرى من جراء مافعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا فى الجهتين أعداء للطرفين .

ذكر الله قصة الأحزاب فى سورة سميت باسمهم وهى السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى

المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾ والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان ، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ ثم ذكر أمر بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب فى عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ .

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم فى ذراعه فقطع أكحله وقد مات بعد حكمه على بنى قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمى وخالد بن الوليد المخزومى وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك .

بنى لحيان

أقام عليه السلام بالمدينة - بعد الخندق - إلى جمادى الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بنى لحيان يطالب بأصحابه الرجيع فسار حتى نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا فى رءوس الجبال فعاد إلى المدينة .

ذى قرد

لم يقم بالمدينة إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن - فى خيل من غطفان - على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى فأشرف فى ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد فى أثر القوم وكان راميا مجيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكوع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد

ابن زيد وقال له اخرج فى أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون فى أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقى وأقام المسلمون بذى قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد .

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبى فى المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم .

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للمن على السبى وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم .

قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمرا لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله فى منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها .

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه ؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب ! ! ثم

بعثوا إليه رسولا آخر من بنى عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلا ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك ؛ فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش ما على هذا حالفنا كم أيصد عن البيت من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد و بين ما جاء له أو لننفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه ـ كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به . ثم بعثوا له عروة بن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبدشمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يامحمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لايحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ؛ ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حربا وقد هال عروة ماراه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يامعشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قوماً لايسلمونه لشىء أبداً فروا رأيكم .

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله إلى قريش حتى يبلغهم عنه ماجاء من أجله فقال عمر يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف ؛ فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الإشاعة

رسول الله قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان ـ تحت الشجرة ـ على أن لا يفروا ، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة .

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامرى وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول فى أمر الصلح واتفقا على قواعده وهى هذه :

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب بعد أن تخرج منها قريش :

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض :

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه ردّه عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه :

(٤) من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه :

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر فى عهد قريش .

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد انفلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادى يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل ـ عملا

بوثيقة الصلح - عملا بالآية الكريمة ﴿ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ .

كانت حال بعض المسلمين عندما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون فى ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رواه من هذه الشروط التى رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لا تليق بالمسلمين حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله ألست برسول الله ؟ قال بلى ؛ قال أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ؛ قال أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى ؛ قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رءوسهم وأنزل الله فى هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها .

وقد سميت فى أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التى ما كانت كل هذه الحروب إلا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذى ضحى فى نيل ذلك إنما هو شىء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون - ثم ذكر فى السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ماسيعتذرون به ووبخهم على مافعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التى من أجلها امتنع الرسول عن الحرب - ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل .

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاؤا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ماحل بهم وبإخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

فخرج فى محرم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف مايخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر.

وفى يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشى على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقى من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاؤا إلى المدينة قبل ذلك.

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدّوا فى العام الماضى ليقضوا تلك العمرة التى فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل إليها فى ذى القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون، وكانت قريش تتحدث أنّ أصحاب محمد فى جهد وشدّة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمرأ أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها.

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثا ثم انصرف إلى المدينة فى ذى الحجة.

مؤتة

كان من ضمن رسل النبى عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى، وكان رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة، فخرجوا فى جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام

فبلغ الناس أن هرقل(١) قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين فى معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو، وهم فى العدد القليل، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفى ذلك الوقت أظهر مهارته فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا - مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمى بهم فى الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة. وعندنا أن تلك الأعداد التى يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقى له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً فى جانب مائتى ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذا عدوا من قتل فى هذه الموقعة لا يزيدون عن اثنى عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته إليه ضئيلة ثم لا يقتل فى الميدان إلا اثنى عشر نفراً.

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين الحيين فى الجاهلية دماء. فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بنى بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل ابن معاوية الديلى ورفدتهم قريش بالسلاح، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بنى بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا

(١) فى تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ماقيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التى كان الفرس قد استباحوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار إليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم.

فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد فأنشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبنى بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهد ، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لابد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فلم ينجح وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطباً عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج فى هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٨ : (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة .

كانت قريش محسة بأنه لابد من شىء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشىء من مسير المسلمين . وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقى أباسفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبى سفيان فقال العباس يارسول الله قد أمنته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك ؛ فإذا أصبحت فأتنى به فذهب به حتى إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبى سفيان ويحك ياأباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ما أحلمك ؛ وأوصلك وأكرمك ؛ والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد ، قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؛ أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ؛ وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق ، فقال العباس ؛ يا رسول الله : إن أبا سفيان

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فقال عليه السلام من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعا ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لاتستحق الذكر ، فلما نزل مكة وأطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الشيبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ماتظنون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال :

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهى فى أعقابه إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال مابه من الصور والتماثيل المختلفة .

وأمر ـ حين دخوله مكة ـ بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل فى الإسلام فى هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد. يعتبر فتح مكة حدا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين مابعده فإن قريشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب فى ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب .

أمر حنين

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضرى ودخل معها فى ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس غيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم ومعه اثنا عشر ألفا وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين

وشرعوا ينحدرون فيه . كانت هوازن وثقيف قد كمنوا فى شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهيئ هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا إلى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل . فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السمرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف ـ وحدهم ـ نحو السبعين : وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن .

ولقد أنزل الله فى هذه الموقعة فى سورة التوبة ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف لحاصرهم مدة ، ثم عاد عنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يارسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فمن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر الغسانى أو للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا فقال لهم أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار

ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك ردّ عليه السلام إلى هوزان أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فردّ عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل لحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة .

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه فى مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لايحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولاطريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله فى سورة التوبة .

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربا .

التشريع فى المدينة

بينا فيما سبق أن الذى نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن .

ويمتاز المدنى من القرآن عن المكى منه بأمرين (الأول) مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثانى) ماتناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعنى بالدينية ماشرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض .

الشرائع الدينيـــة

(١) الصلاة لم يزد الكتاب فى تفصيلها شيئاً إلاأنه شرع صلاة الجمعة فى اليوم الذى اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة فى سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف فى حال تقابل الصفوف وقد بينها فى سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها .

(٢) الصيام شرع فى المدينة فى السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك فى سورة البقرة .

(٣) الحج شرع فى المدينة فى السنة السادسة وقد بين الحج فى موضعين من سورة البقرة (الأول) فى قوله تعالى ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أواعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ (الثانى) فى قوله ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ إلى قوله ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ وذكره فى سورة آل عمران من قوله ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ .

وقد بين فى سورة الحج المكية شىء من تاريخ الحج والغاية منه ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام﴾ الآيات .

ولم يحج عليه السلام إلافى السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودّع فيها الناس وقال لهم لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا وأوصاهم فيهما بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملا .

(٤) الزكاة لم يرد فى تفصيلها فى الكتاب شىء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها فى سورة التوبة .

الشرائع الاجتماعيـة

كنا نحب أن نجعل فى مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من

العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهى أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله .

ماورد فى الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع :

الأول - مايتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالا شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجى ولكننا لانستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصى الذى ترجع أوامره ونواهيه إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهى أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضى لنا أهل اللغة باسم العائلة وإلا سميناها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه .

الثانى -- مايتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض .

الثالث -- مايتعلق بالقصاص والحدود .

نظام البيوت :

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمى عقده ﴿ ميثاقا غليظاً ﴾ وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين ﴿ مودة ورحمة ﴾ وجعل كلا من الزوجين لباسا للآخر ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهن ويسكن إليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أى تسكنون فيه .

(٢) حرم التزوج بنساء بينهن فنهى فى البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى فى سورة النساء عن تزويج نساء بينهن من أول قوله تعالى ﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ﴾ الآيات .

وأجاز فى سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب .

أباح التزوج بأكثر من واحدة : إلى أربع ، ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل ، فهو إذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والأسلوب الذى جاءت به آية إباحة التعدد ، مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم ، والوصاية عليهم ، فقال لهم

إن خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى فكذلك خافوا أن لاتعدلوا فى النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ يعنى إن أمنتم أن تعدلوا ؛ فإنه قال بعد ﴿ فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة ﴾ ومما يلفت النظر أنه قال فى السورة نفسها ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولوحرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ .

(٣) أمر بإعطاء النساء مهراً عند التزوج ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ به ولا ينتهى إليه .

(٤) العشرة : كثر فى القرآن وصاية الرجل بالمعروف فى معاشرة امرأته ﴿ فإمساك بمعروف ﴾ البقرة ٢٢٩ ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ ، وجعل للرجل الرياسة فى البيت ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ وهذه الرياسة لاتجعل له امتيازاً فى الحقوق فإن الكتاب يقول ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدى لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك فى جملة وجيزة هى أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لاتنحل بسبب مايحصل بين الزوجين من النفور فأول الأمر شكك الزوج فى وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ وأى زوج لا يتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة .

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقا بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكما من أهلها وحكما من أهله للسعى فى التوفيق حتى لاتنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحا فقال ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ .

وإذا لم يقف بعدذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بدمنه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ وشرع فى

الكتاب نظاما للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هى لاصقة بهم ما داموا على حالهم.

بين ذلك النظام فى سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الانسان بعدهما بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنتظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثانى وظنت هى وزوجها الأول أن فى إمكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾.

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجه بإحسان ﴿وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾ وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة فى بيتها الذى كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج إلا إن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة. اقرؤا إن شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله فى حكمة بقائها فى بيتها ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ ثم قال ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله﴾.

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة إذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾ وقال ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾ وقال ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا﴾ وقال ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾.

فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام.

(٥) فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد أن كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾ ثم بين تلك الأنصباء بياناً تاماً في سورة النساء .

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف في أموالهم .

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوي فالذين يقولون ليس في الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب .

المحاضرة السادسة عشر

المعاملات - الحدود - الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات في مواضع من كتابه .

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان للإنسان .

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ .

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهي ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه في سورة البقرة .

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها ﴾ ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدي أمانته ،

هذه هى الأصول العامة التى اعتنى الكتاب بوضعها .

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها .

(١) آداب الاستئذان وقد بينها فى سورة النور فى موضعين (الأول) ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ (الثانى) فى آخر السورة حيث يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ﴾ إلى آخر الآيتين .

(٢) نهى النساء عن أن يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بحضر أقارب لهن سماهم فى سورة النور وأمرهن فى الأحزاب بإدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لا يتعرض لهن أحد فى طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة .

(٣) أمر فى التحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التى بها يتم تعاطفهم وإلفهم .

الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت فى سورة الإسراء أن من قتل مظلوما قد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف فى القتل وكان ولى الدم عند العرب أقرب عاصب للإنسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذى صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبين فى البقرة أن كتب القصاص فى القتلى وأن القصاص لا ينبغى أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغى أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأنثى بالأنثى ولا ينبغى أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو عن ثبت له الحق فى القصاص وهو الولى وذكر الكتاب أن من الشرائع التى كتبها على قوم موسى القصاص فقال ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ .

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة (الأول) حد الزانى وقد جعله الكتاب مائة جلدة (الثانى) حد القذف وقدجعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان فى سورة النور (الثالث) حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد (الرابع) حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض ، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير ، ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فإن الكتاب قال ﴿فإن تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ وهذان الحدان فى المائدة .

هذه جملة صغيرة من النظام الذى شرعه الله فى هذا الدين ليكون أساسا لأعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا إليه .

الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا فى دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالأنصار وكان الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أوخافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه إلا أنهم كانوا فى الظاهر مشاركين المسلمين فى الإسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين ، ويظهر لى أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإنى لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لما مات عبدالله بن أبى ابن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه فى قميص له ونزل فى قبره مع أنه كان سببا عظيما فى مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن فى هذه قوة كبرى .

ودخل فى الإسلام قليل من يهود المدينة كعبدالله بن سلام ومن سار على رأيه . كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهى الحال مع قريش ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالا فإن انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون فى الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجها لوجه كل ذلك

كان مما يجعل الدعوة فى سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه.

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن فى الدين الإسلامى فكان ذلك سبباً مهما من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك مايعارض هذا الأثر. حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش فى الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإن الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم فى نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذى يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجاً قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود.

فممن وفد عليه ثقيف. بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الإسلام عمّ من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الإسلام وفى مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة فى ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم، وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة؛ فقال لا خير فى دين لا صلاة فيه، وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص منهم وكان أحدثهم سناً لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله ياعثمان تجاوز فى الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاما. وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى فى خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينياً ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفتخر - وأولها:

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سـنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته   تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم   أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محـدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وأبى إن هـذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ؛ ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام.

وممن وفد من قيس : بنوعامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنوعامر قالوا لابن الطفيل ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى أفأنا اتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار إليها مضمراً غدراً فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد.

وقدم عليه وفد بنى سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يا ابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدن علىّ فى نفسك قال لا أجد فى نفسى فسل عما بدالك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولا ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن نصلى هـذه الصلوات الخمس ؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ؛ الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها حتى إذا فرغ قال فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب مانهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ؛ ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا أمراة إلا مسلما بعد أن علمهم الإسلام وشرائعه.

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبدالقيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان نصرانياً فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالإسلام.

ومن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذى لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة وادعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكى بها القرآن ومن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيئ فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام فى زيد ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ماقيل فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ماكان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيداً وأرضين معه ، ثم وفد عليه من طيئ عدى بن حاتم الطائى فأسلم وحسن إسلامه والسبب فى وفادته أخته.

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير بإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومغافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه يفقهون الناس فى الدين.

ومن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامى وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال:

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أعظمى ومقامى

ثم قدم عليه وفد بنو الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامى وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المعشار المكنى بأبى ثور.

وهكذا دخل الناس فى الدين أفواجا حتى كان رسول الله فى حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة فى أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين فى حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه فى هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنه كان فى وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعا لسادتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الثارات ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر أن لايعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله والله عليم حكيم﴾ ﴿ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾ وقد أثنى على آخرين منهم فقال ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم﴾ .

أما الحاضرون منهم فى المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الإسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر فى دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعاته إلى الملوك ورؤساء الأمم إلى الدين حتى لايكونوا ممن يصدعن الإسلام أو يقف فى سبيل دعوته ، ومعلوم بالبداهة أن الدعوة فى تلك الأزمنة وتلك الحكومات لابد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لأنهم لايمكن أن يتركوا لداعية حريته إذا كانوا مخالفين له .

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبى رسولا إلى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك) .

وننقل هنا مارواه ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب قال كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لانجد أمنا فخرجت فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم . وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردّ عليه ماورد ليصلى فى بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم أصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه إلى السماء فقال له بطارقته والله لقد أصبحت أيها

الملك الغداة مهموما قال أجل رأيت فى هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا يهود ، وهم فى سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم ، فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه .

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذى كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فإذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لى الشام ظهراً وبطنا حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحما قال أبو سفيان أنا فقال ادنه ادنه فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ثم قال إنى سأسأله فإنى كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا على ولكنى كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عنى فلم أكذبه فقال أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى قال فجعلت أزهده شأنه وأصغر له أمره أقول له أيها الملك ما يهمك من أمره إن شأنه دون ما يبلغك فجعل لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسبا قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه قلت ما تبعه رجل ففارقه قال فأخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه فى هدنة ولا نأمن

غدره فوالله ماالتفت إليها منى ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتنى ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى على الأخرى وأقول أى عباد الله لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشأم.

وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم فى اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت ما قلت لأختبر صلابتكم فى دينكم؛ ومن هنا نفهم السبب فى احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجىء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله.

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث ابن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بى إنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكى منى أنا سائر إليه ولم يسلم.

وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجرى الحبشة ففعل النجاشى ما طلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة.

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه

وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به فاختار باذان رجلين ممن عنده وبعثهما بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبى صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتنطلق معى وقالا قولا تهديديا فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحى ، فأخبرهما بذلك . فقالا هل تدرى ما تقول ؛ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ؛ أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء. فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ؛ وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ؛ وقال له شيرويه فى كتابه انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سبباً فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء .

وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذى بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التى بين العرب وأهل مصر .

وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى ؛ وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلمهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سبباً فى إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفى غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات .

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته ـــ ختام القرآن ـــ الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً فى نجاح الدعوة الإسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه ؛ وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج إلى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة - حينما أخبرها بأمره أول مرة - ما كان الله ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق. الأخلاق الفاضلة فى الداعى ملاك أمره كله ، ألا ترى الله سبحانه يقول ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب ، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل إلينا .

النظافة الظاهرة - مما يروى عنه عليه السلام : بنى الدين على النظافة ، وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها .

العقل والذكاء ـــ لا مرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم .

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه إلى أكمل عقل وأرجحه .

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف وأوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها

ويجاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفة النهدى وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين فى المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير فى صحبة من لا يرى لك ماترى له - الناس معادن - ماهلك امرؤ عرف قدره - المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم - رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم - إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيها عند الله - اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن - الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير. قال له أصحابه يوما مارأينا الذى هو أفصح منك قال ومايمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وقد بين له الوحى معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ وقال له ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وقال ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله. كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا إن انتهك حرمة الله فينتقم لله بها. ولما حصل له بأحد ماحصل قيل له لو دعوت عليهم فقال (إنى لم أبعث لعانا ولكنى داعياً ورحمة اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده فى جوابه أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل ونهى من أراد من أصحابه قتله، لم يؤاخذ عبد الله بن أبى وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم

فى جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتى عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم مازاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم - كان عليه السلام فى هذا الخلق لايبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه . قال جابر : ماسئل عليه السلام عن شىء فقال لا . وقال ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون فى شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لايخشى فاقة وأعطى غير واحد مائة من الإبل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندى شىء ولكن ابتع على فإذا جاءنا شىء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبى ذلك فقال رجل من الأنصار يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه وقال بهذا أمرت .

الشجاعة والنجدة - كان عليه السلام منهما بالمكان الذى لايجهل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة . وهو ثابت لايبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . فما رؤى أحد يومئذ كان أشد منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا لله ولم يقم لغضبه شىء وقال على كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا .

الحياء والإغضاء - كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئا عرفناه

فى وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله . وروى انه كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد وأنه يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره .

حسن العشرة والأدب وبسط الخلق مع أصناف الخلق - قال على فى وصفه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس اصحب رسول الله قال قيس فقال لى عليه السلام اركب فأبيت فقال إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافىء عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ! وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على احد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس إليه احد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان اكثر الناس تبسما واطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن أو يخطب .

الشفقة والرأفة والرحمة - وصفه الكتاب بذلك ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ . روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت إليك ياأعرابى قال الأعرابى لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبى صلى الله عليه وسلم إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب مافى صدورهم عليك فلما كان العشى جاء فقال عليه السلام إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ قال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار ، وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته .

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم - قال عبد الله بن أبى الحمساء بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد فجئت فإذا هو فى مكانه فقال يافتى لقد شققت علىّ أناههنا منذ ثلاث أنتظرك . وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكان يصل ذا رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال إنّ آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء غير أنّ لهم رحماً سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشى قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم . وكان يبعث إلى ثويبة مولاة أبى لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقى من قرابتها أحد فقيل لا أحد .

التواضع - كان عليه السلام أشد الناس تواضعا وأقلهم كبراً ، عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصا فقمنا له فقال لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجا لارياء فيه ولاسمعة . هذا وقدأهدى فى حجه ذلك بمائة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى . ومن تواضعه قوله : لاتفضلونى على يونس بن متى ولا تفضلوا بين الأنبياء ولاتخيرونى على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له : هون عليك ؛ فإنى لست بملك ؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة - كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم ؛ وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه ؛ وكان يسمى قبل نبوته الأمين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية قبل الإسلام ، وروى عن علىّ أن أباجهل قال له إنا لانكذبك ؛ ولكن نكذب بما جئت به وفى ذلك قال الكتاب ﴿فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ وسأل هرقل أباسفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؛ قال لا ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاًوأعظمكم أمانة ؛ حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ؛ قلتم ساحر ! لا والله ماهو بساحر . وفى حديث علىّ فى وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحداً ولايقرف أحداً ولا يصدق أحداً على أحد ، أى لا يسمع وشاية الواشين .

وقال خارجة بن يزيد كان النبى صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لافضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرآله واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لاترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير .

وعلى الجملة ؛ فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه ؛ وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . وكانت هذه الخلال مما قرب اليه النفوس وحببه إلى القلوب ؛ والآن من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون فى دين الله أفواجا مناصرين موازرين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه ؛ فضلا عما أيده الله به من المعجزات ، وقد أفاض القول فيها كتاب السير .

البيت النبوى :

كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهى أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها فى حياتها ، وقد كان له منها أبناء وبنات ، فأما الأبناء فلم يعش منهم أحد ؛ فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذى كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر . وأما البنات فكن أربعاً : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هى بمكة ، فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا ، فلما رأى الرسول القلادة : رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبى العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلا مأموناً بماله وأموال الرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فرد النبى صلى الله عليه وآله وسلم إليه زوجه زينب ، ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبى طالب ، ومنها كان الحسن والحسين وزينب . وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة .

ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع

زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهن .

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة ؛ منهن تسع مات عنهن ؛ واثنتان توفيتا فى حياته إحداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما ، وها هى أسماؤهن :

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بنى عامر بن لؤى من قريش، وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو .

(٢) عائشة بنت أبى بكر الصديق وكانت بكراً ، ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهى بنت ثمان أو تسع ، وفى النفس شىء من تقدير هذا السن .

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمى .

(٤) أم سلمة هند بنت أبى أمية بن المغيرة من بنى مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش

(٥) وهؤلاء الخمس كلهن من قريش ؛ يضاف إليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من هذه البطون ـ عبد مناف ـ أسد بن عبد العزى ـ مخزوم بن يقظة ـ تيم بن مرة ـ عدى بن كعب ـ عامر بن لؤى .

(٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية وهى بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذى كان معتبراً ابناً للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبنى فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبنى حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأن عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامة العرب فأخفى فى نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك فى الخطاب نوع شدة ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليك أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾ فبينت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، وكان النزاع اشتد بينهما ؛ فأحب أن يفارقها ـ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد ؛ وهذا هو الذى أبدته الآية ـ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ـ تخشى الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه ـ ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً

زوجنا كها وبين العلة فى ذلك بما ذكر بعد . ولقد هدم قاعدة التبنى قولا كما هدمها فعلا فقال ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ وقال ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ .

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهى التى عتق بسبب زواجها من كان أسر أو سبى من قومها وأسلم أبوها .

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت قبله عند أبى رهم بن عبدالعزى من بنى عامر بن لؤى .

(٩) صفية بنت حيى بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن أبى الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتى توفى عنهن .

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ؛ وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم رقتها عليهم ، وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عبدمناف ، وهذه توفيت فى حياته .

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج بهن الرسول ؛ وبنى بهن ؛ منهن ست من قريش ؛ وخمس من سائر العرب .

وهناك اثنتان لم يبن بهن ، وتسرى بمارية القبطية التى أهداها له المقوقس فأولدها ابنه ابراهيم الذى توفى صغيراً بالمدينة فى حياة أبيه . وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ .

يظهر لنا أنه كان للنبى صلى الله عليه وسلم رأى فى أن يجمع فى نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة ، وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعداً له أذى كثيراً من أعدائه ، فلما كان بالمدينة صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبنى إسرائيل ، وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما فى جويرية وزينب وصفية .

وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحوال المنزلية للناس خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله . وتجدون فى سورة الأحزاب كثيراً من أحوال بيته ، وفيها يقول الكتاب ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ .

ختام القرآن

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى فى يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع فى مصحف واحد فى حياته وقد تم ذلك فى خلافة أبى بكر (راجع خطابنا الذى ألقيناه بنادى العلوم فى سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى فى تلك السنة) .

الوفاة

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض فى بيت عائشة فأذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم كانوا عيبتى التى أويت اليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾

وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بنى ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل فى قميصه وكفن فى ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولا ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له لحد فى الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التى كانت فى الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها

وكانت سنه عليه السلام ثلاثا وستين سنة قمرية .

المحاضرة الثامنة عشر

— الخلافة —

الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لأمته (الأولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماما للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر وإليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام.

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ماأراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها.

والوظيفة الثانية هى التى اختصصنا بها محاضرتنا هذه.

لم ير المسلمون بدآ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلافة المسلمين: ولم يوجد بين هذه الأمة شىء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها فى الخلافة ومدار البحث كان فى أمرين (الأول) البيت الذى يكون منه الخليفة (الثانى) الشكل الذى به ينتخب الخليفة.

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة.

لم يدفن النبى صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها. وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبدالمطلب ومن بنى عمه علىّ وعقيل ابنا أبى طالب ويمتاز على من بينهم

بسبقه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث .

رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإنهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التى قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وإنما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين فى ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى مافى الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون فى رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهى (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) .

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم ابو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفا من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحىّ من قريش . ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون إستنتاجه أنّ السر فى تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه احد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هى العصبية التى بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة .

ورأى التخصص بالقرابة القريبة كان لعلىّ بن أبى طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه احق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك فى حديث مع أبى بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه أذعن لراى الجمهور .

مكث الرأى الأوسط سائداً والأخير خامداً لايجد له محركا حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلامية دعاة له ينبهون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الإحساس فسرعان ماتنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب فى سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هـذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع على بن أبى طالب لأنه قام فى وجهه نصف الأمة قادما إليـه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التى قصد منها إقرار الأمر فى نصابه من بيت النبوة ، وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبى سفيان بالخلافة وهو من بنى أمية وليس من بنى هاشم .

عادت فكرة الشيعة إلى الخمود ولـكن السيوف وإن تـكن تغلبت فى الظاهر عليها فقد استكنت فى النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حينا انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء علىّ يرون هـذا الحق لهم إرثا لاينازعهم فيه إلا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تـكون العاقبة قتلا وتمثيلا إلا أن هـذا الظفر كان مما يزيد النار تأججا والقلوب تأثراً لأنه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان أكثر مايقولونه من الشعر المأثور فى تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكربلاء بعد أن أذيق من العطش الـكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى ردّ الحق لأهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بنى على وبنى العباس فى استحقاق الخلافة بل كان بنو على يرون الحق لهم خالصا لما لأبيهم من الامتيازات الـكثيرة ولـكن بنى العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبى هاشم بن محمد بن على عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن على بن عبدالله بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علىّ لأن الأول عم والثانى ابن عم فاشتغلوا فى الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس إليهم سرا فى دولة بنى أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخراسانى فتمم لهم الأمر وردّ إليهم الخلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا

من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى علىّ وأهل بيتـه أكثر من توجهها إلى بنى العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبـد الله السفاح بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس .

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوى والعباسى ، فكان نصيب آل على فى خلافة بنى هاشم أشد وأقسى مما لاقوه فى عهد خصومهم من بنى أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصا فى زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بنى العباس وكان اتهام شخص فى هذه الدولة بالميل إلى واحد من بنى علىّ كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم .

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق على وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بنى العباس كما كانوا يخرجون على بنى أميـة والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقى منهم بالشرق سكت على مافى نفسه .

ذهب الفاروق إلى أفريقية بعـد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولا علوية لها خير ذكر فى التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتى ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم فى السر حتى كان شىء من ذلك فيما يقال سببا من أسباب سقوط الدولة العباسـية فإن ابن العلقمى وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجىء التتر إلى بغـداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك فى الممالك الإسلامية ـ لمصر ـ وملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد إليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة .

هذا كان شأن الاختلاف فى البيت الذى يكون منه خليفة المسلمين شكل الانتخاب لم يرد فى الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وكذلك لم يرد فى السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا

الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولننظر ماصار عليه المسلمون فى ذلك وهاهى طرائقهم :

(١) الطريقة الأولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت فى انتخاب أبى بكر حيث اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة وتشاوروا فى الأمر ثم انتخبوا أبا بكر - بعد حوار وجدال - ولكن انتخاب أبى بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة فى البت حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين فى السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبى بكر أول رجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فضلا عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلى بالناس نيابة عنه فى وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهى الأمر بسرعة فمد يده إلى أبى بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت : فلانا مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيئة التى لها الحق فى انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو .

(٢) الطريقة الثانية : أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده الخلافة وهى الطريقة التى كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية فى انتخاب ولى عهده من غير قيد .

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهى الطريقة التى انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته فى حجرة عائشة ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأى المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها

وإلا اعتبر خارجاً يستحق القتل، وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذى فيه عبد الرحمن ابن عوف مرجحاً.

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نر فى مستقبل الأمة من تناولها فضلا عن أن يحسن فيها: لا ينكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن للقصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبوا الخلافة مجالا للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محساً بأن كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر فى ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التى سبق ذكرها.

لم يكن فى طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترما أهم الأمة بأسرها؟ أم هم أفراد مخصصون؟! وإن كانوا مخصصين فمن هم؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد، ولكن من هم أهل الحل والعقد؟ أهم ولاة الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة؟ كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف على. والطريقة الثانية وهى طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن فى بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل فى انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبد العزيز والطريقة الثالثة - فى حقيقة الأمر - كالثانية إذا اقتصر فيها على الشكل الذى رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور على قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ فى ذلك رأى غيرهم من المسلمين فى الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة - وحدهم - هم الذين ينتهى إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد فى الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى: كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلا معاوية بن أبى سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لأن بيعة على ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين

الطرفين فى سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا إلى شيء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى فى صاحبه وأريد منهما أن يحكما فى أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرا فى البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث فى خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قوى الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لا حكم إلا لله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغى له أن يكون فى شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس فى أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح فى نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوها الحق فى أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفيهم كفارا فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا لأمرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لا لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة: انتهى أمر على واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفى نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص فى الشكل عن بيعة على بقطع النظر عن التعرض لما فى كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضرورى أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة فى الشريعة يقال إن أحدهما تعداها إلا إن سرنا على رأى من يقول إن علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته.

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه فى ولاية العهد على أن الخليفة هو الذى يعينه كما هى طريقة أبى بكر فى عهده لعمر إلا أن بينهما فرقا وهو أن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا فى الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلى ولده يزيد ولكنه امتاز

من أمصارهم يعرض في عهده بأن طلب من ولاة الأمصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولي عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوى في بقاء الأمر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الأمر، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد، من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير.

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء في وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الأمة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجا حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهده بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهي أول مرة ولي العهد فيها اثنان[1].

---

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولي فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا بهلاك الأول وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذي جعل ولي عهد له فيجتهد في نزعه وإقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد. وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بني أمية جميعاً وولى يزيد أخاه هشاما ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصاً على الوليد حتى ساءت أخلاقه وولى السفاح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدي. وولى المهدي ابنيه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل وولى الرشيد بنيه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعلم مما أصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة فى بنى أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بنى العباس فسارت على هذا النمط ؛ إلا أنه فى عهد الضعف الذى استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير إلى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم فى مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بنى العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه .

جاء البيت العثمانى وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الإسلامية التى كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره فى عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها فى شكل الاختيار وهى أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ، ومع هذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك فى بيتهم أكثر مما حفظه فى أى بيت آخر .

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوى فإنه كان منظوراً فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثناعشرية فى بنى الحسين بن على وسموا علياً ومن يليه الأئمة وكانوا اثنا عشر آخرهم المهدى المنتظر الذى اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى فى سوق الخلافه لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التى جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقا

لم يكن يحل الخلاف فى زمن من الأزمان إلا بالقوة فهى التى تجعل صاحبها صاحب الحق ظافراً ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى فى جمع الكلمة على قانون يتبع فى انتخاب الخلفاء وهى نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين .

تناول العلماء فى الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل إلينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور :

(١) وجوب نصب الإمام أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية ؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الإسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطى وأتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة (٢) شروط الإمام وقد عدوا منها شروطا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ماتثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافا للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفى الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولأى شىء يكون ذلك ؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على ؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٦) ماحكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة فى بعض الأحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام فى مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكون صفحات الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم

والخلاصة : أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن فى طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ماهى عليه من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدفع عنه ، سببا لأكثر الحوادث التى أصابت المسلمين وأوجدت ماسيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

المحاضرة التاسعة عشر

انتخاب أبى بكر - أول خطاب له - ترجمته - أخلاق أبى بكر أخبار الردة

انتخاب أبى بكر

كانت الأنصار منقسمة إلى شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سقيفة وهى ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الأنصار فى تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجها إلى اختيار سعد بن عبادة فإن سعداً خطب فيهم مبينا ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الأمر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم ؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن .

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ليقوله فى هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك وكان أبو بكر رجلا وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب فى سبيل دينهم ثم كرّ على ذكر الأنصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئا مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الأئمة من قريش) ثم قال فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور ، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم بن الخزرج فقال يامعشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم وظلكم ولن يجترئ مجترئ على أخلاقكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون

ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذيلها(١) المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير بن سعد وهو من بنى زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا عرضا فإن الله ولى المنة علينا بذلك ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك ابسط يدك لنبايعك فمد عمر يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت أنفست على ابن عمك الامارة ؟ قال لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء. والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤون سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على ابن أبى طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين فى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بهذا تمت بيعة أبى بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

---

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به؛ والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه.

كلهم إذ ذاك فى المدينة ، ولم يزل على بن أبى طالب ممتنعاً عن مبايعة أبى بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبى بكر والله لاتدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى ؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتى وبعد أن أتم كلامه قال على لأبى بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر ولا إنكاراً للذى فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى على قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف .

أول خطاب لأبى بكر

بعد أن تمت بيعته قام فى الناس خطيباً (١) فقال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن صدفت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وهذه الكلمة هى مجمل الطريقة التى اتبعها فى خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفى هذا ضمان لحريتهم فى القول أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبى بكر يظهرون بها ما لأنفسهم من الخطة التى سيتبعونها فى سياسة أمتهم إجمالا .

ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه - حثهم على الجهاد الذى كان لا بد منه - أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم.

ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر بن أبى قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الأخلاق الفاضلة والسير الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم مالا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر وكان له فى الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بدا من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه مايصيب إخوانه: ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثانى اثنين إذهما فى الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية فى غزوة تبوك وأمره النبى صلى الله عليه وسلم على الحج فى السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه فى الصلاة.

تزوج أبو بكر فى الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى فولدت له عبد الله وأسماء التى تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج فى الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتزوج فى الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبى طالب فولدت له محمداً - وتزوج فى الإسلام أيضا حبيبة بنت خارجة بن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم - فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث.

أخلاق أبى بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها فى أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما

ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبى بكر فإنا نجد أظهر أخلاقه .

صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان فى الأمر على قدر مايتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شوريا فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شىء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقا : هكذا كان أبو بكر .

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر .

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان مترددا فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك .

أول ما ظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، هيأ بعثا ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه فى مؤتة وكان فى هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الأمر أو أخر البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمرا حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم تكلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضبا شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر؟!! واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الأنصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضرورى وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بابقائه بل قال لأسامة إن

رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له . وهذا مقام كبير فى احترام ذى السلطان فى سلطانه وفى الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوى حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماما واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغى له أن يفتات عليه.

ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهى :

لاتخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ادفعها باسم الله[1]

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوما ثم عاد وكان هـذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية !

ومما يظهر صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى أخبار الردة .

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله فى سورة الحجرات ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ فهذه

---

(١) فى لسان العرب : وفى الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة : وستجدون آخرين للشيطان فى رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أى إن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا إنسانا بشدة الغى والانهماك فى الشر : قالوا قد فرخ الشيطان فى رأسه وعشش ، وفى حديث أبى بكر وستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف ، وفى الصحاح كأنهم حلقوا أوسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهى مجاثمها .

كانت حالهم خضوع فى الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الاسلامية ؛ خصوصاً ما كان منها فى المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين .

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة .

(٢) وفريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبى بكر صادقة فى حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعلمه من هذا الانتقاض الذى كاد يكون فى عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شىء .

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها ؛ فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة ؛ وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهمّ بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى ، فخرج فى تعبيته حتى نزل على أهل الربذة فالأبرق فاقتتل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياما ، وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد فى ذلك اليوم إحدى عشر لواء لإحدى عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة (٣) ووجه فى أثره شرحبيل بن حسنة (٤) المهاجر بن أبى أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسى بصنعاء ومعاونة الأبناء (٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان (٦) عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فى عمله (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن (٨) العلاء

ابن الحضرمى ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة

(١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتابا واحداً (منشوراً) أرسله اليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال : (وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى : ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ وقال : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وإنى قد بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغى ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم .

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله مااستطاع فى أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذى لهم لاينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من

كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن له عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لايقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ماأفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول- طليحة ومالك بن نويرة -

كان طليحة رجلا من بنى أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس النبوة ليكون له من الشأن مارأى لبنى قريش فدعا إلى ذلك قومه من بنى أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت فى غمارهم غطفان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيء بأرض نجد. وكان بالمدينة عدى بن حاتم الطائى وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبى بكر أن يذهب إلى قومه فأذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم فى الذروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم أوارتهم فاستقبل عدى خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك؛ ففعل خالد، ثم عاد عدى إلى قومه، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم، ثم راجعوا الإسلام، فعاد إلى خالد وأخبره، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتى بزاخة، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس عيينة بن حصن الفزارى بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له: ألا ترى ما يصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشىء؟ قال نعم قد جاءنى وقال إن لك يوما ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لاتنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لاتنساه، يابنى فزارة هذا كذاب وولى عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلما فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين

زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فإن الرغوة فوق الصريح ، فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الإسلام كله فلا تعنيف على بعضه فأسكت عمر .

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبى بكر ومنهم من منعها كمالك ابن نويرة ومنهم المتردد فى الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هى وأبوها فى بنى تغلب وأصلها من بنى يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبى بكر فلما قربت من ديار بنى تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بنى يربوع ودعته إلى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبى بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع بن مالك سيد بنى مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة : أعدوا الركاب ؛ واستعدوا للنهاب ؛ ثم أغيروا على الرباب ؛ فليس دونهم حجاب ، فكانت بذلك خطوب فى بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بنى تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفى فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبيناهم على ذلك إذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد فى جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على مافعل وتحير فى أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندما ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك فى نفر من بنى يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر إن فى سيف خالد

رهقاً فإن لم يمكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه فى ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودى مالكا وبخذلان بنى يربوع عاودت تميم كلها الإسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبى بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بنو حنيفة ومسيلمة :

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول فى حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلى اتباعه، وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوما لا يعدلون، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بنى حنيفة باليمامة ووجه فى أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجهاً آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها اتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر. سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالا شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا فى الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم جماعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبى فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتلهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح؛ فوفى لهم خالد بما عاهدهم عليه، ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالاسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبى بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل قالوا ياخليفة رسول الله لقد كان الذى بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم

سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ماخرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم : وأقام خالد بعد فراغ الأمر فى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر

اليمن والأسود العنسى

ولما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان الذى كان عاملا لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء ، وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل فى هذه الولايات قبل وفاة الرسول . ثم قام رجلا من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الأبناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن فى أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتابا على يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل فى أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينا . وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس ابن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففاتحه الأبناء فى أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التى اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلى بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر .

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من رؤس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات

ومازالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبى أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معد يكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبى جهل لحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبى بكر يبشرونه بالفتح .

البحرين والحطم

كان عليه السلام قد ولى على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر فى الشهر الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يامعشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى إن علمتم وماتجيبونى إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم . أما بكر فإنها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمى أميراً على الجند الذى سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال فى مسلمة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الإسلام بجرانه فى البحرين وكتب العلاء إلى أبى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الإسلام .

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب فى غير هذه الجهات فى جميعها انتصر المسلمون .

اشتغل أبو بكر فى أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لاتزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وماظنك بهذه النار التى هاجت فى جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليدعجاجتها قبل أن تنقضى السنة التى لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحار بادئ بدء فى هذا الأمر ولكن إذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام فى تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند

والبهم فى مواعيد قليلة لا يلبث أن تهتز نفسه ويعترف لأبى بكر أن له نفساً هى أكبر نفس عرفت عن خليفة .

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض فى جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبى بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضباً شديداً ولم يكن هناك هوادة فى رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لأى سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته ، وحاول عمر أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لأنه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ .

إنا نقول فى ذلك قولا صريحاً . لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذى عرف . حصل ذلك فى وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقواهم شكيمة وأشدهم قلبا .

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد أبى بكر غزوة الفرس — غزوة الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهى محصورة فى جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية فى حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم فى أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم تلك الأمة العظيمة التى سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً .

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الأعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية .

دولة الفرس :

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهى مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقى والغربى جنوبى بغداد فى منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الأكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن نابك، وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالأمر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت فى عهد اسكندر المقدونى وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل فى مملكه العراق ومايجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أى ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاها ومازال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذى ولد لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز ؛ وهو الذى أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام فرأى ذلك أمراً عظيما أن يدعوه عبد من عبيده زعم ليكون خاضعا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه ذلك الراعى ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلا بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيراً إلى أهل بيته فولى من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان فى ذلك الوقت من كبار القواد شهر بزار مرابطا بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولى أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوما من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن فى تاريخ الفرس وكانت ولايتها فى آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بنى عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهى التى جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهر من أصبهبد خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب أزدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه

إلا أياما ومازال حالهم فى اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم .

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى فى العالم تناصى دولة الفرس فى سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الأمم الشرقية وفى مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية فى زمن القيصر تيودثيوس الذى ولى أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذى ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨ ومازالت الملوك تتوالى على هذا الكرسى حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامى هرقل الذى كان قبل أن يتولى الملك واليا فى أفريقية ثم خرج على الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذى سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون .

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية فى نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لاتخمد فى هذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطئ بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الرومانى فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات ومايسقيان من تلك الأراضى الخصيبة الجميلة .

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامى ماحصل أولا من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنو شروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة فى الشمال ومازالت جنود الفرس توالى فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف فى طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ثم أعادوا كراتهم فى عهد هرقل الذى خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا اسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة فى أول سورة الروم التى نزلت بمكة إبان هذه الحروب قال تعالى ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض ﴾ ثم قال مخبراً عمن تكون

له العاقبة فقال ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ .

وقد حصل ذلك فعلا فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم فى الوقت الذى كان المسلمون فرحين بانتصارهم فى بدر وقد كانت بدر فى مارس من سنة ٦٢٤ والروم فى ذلك الوقت يذيقون الفرس ما ذاقوه منهم قبلا : ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٥ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هى التى راسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكان ممن راسله هرقل وهو فى ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد فى ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف .

هذا مجمل حال تلك الدولتين لأول عهد الخلفاء الراشدين .

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الأبلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لايستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذار يقول له فيه أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء

بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهى من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا للخبث . تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز فى مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا .

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبا من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك . كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم إذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار (١) وعسكر به فسار خالد إليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبرى بثلاثين ألفاً .

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفا يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة (٢) ثم أتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمى خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش فى هزيمته حتى مات فى طريقه عطشاً وقتل فى هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس (٣) وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة .

---

(١) المذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهى قصبة ميسان

(٢) وهى من الشمال من المذار من أرض كسكر

(٣) قرية من قرى الأنبار

ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيشيا وهى بالقرب من أليس وكان فرات باذقلى ينتهى إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة: لما علم الآزاذبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد فى أمغيشيا علم أنه غير متروك فهيأ الحرب خالد وقدم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل فى السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الآزاذبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبى بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابنى عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة (١) وكتب فى شهر ربيع الأول من سنة ١٢: ومما يستطرف ذكره أن رجلا من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبى صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام هى لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم فأسلمونى له فإنى سأفتدى منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكمى قالت فلك حكمك فقال فلست لأم شويل أن نقصتك عن ألف درهم فاستكثرت

---

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة فى الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر

ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك. ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ماعليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتابا هذا نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة. القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم.

ولما رأى دهاقين البلاد ماتم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج (١) إلى هرمز جرد (٢) على ألفى ألف درهم وكتب لهم بذلك كتابا. ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور. وكتب فى مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس رؤسائهم وصورة الأول - بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم فى أرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة : وصورة الثانى - بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزابة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس فى ذلك الوقت فى ارتباك داخلى بشأن من

---

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر

(٢) ناحية من أطراف العراق

يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم فى ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهرسير وهى إحدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى وكانت فى الغربى من دجلة أمام الإيوان الذى كان فى الجهة الشرقيـة منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذا بن البندوان .

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذى أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار (١) وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالى الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا فى عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر (٢) وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد فى تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب فى جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد فى بيتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد ابن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد فى الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالدا هذا الكتاب :

---

(١) مدينة على الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة وهى على طرف البرية

من خالد إلى عياض إياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ، ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسيهم أكيدر بن عبدالملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم ، فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل فى خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التى جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بنى كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمى ، وبعد أن أقام خالد قليلا عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لإعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين إلى الحصيد[1] والخنافس فأوقعتا بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيخ وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالا ، ثم كانت له وقائع بالثنى[2] والزميل ثم فى الفراض وهى تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك فى رمضان وفى الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة فى منتصف ذى القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن فى الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه فى الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجا معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل أو رئبال فما توافى إلى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معاً وخالدا وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبى بكر بصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى أرسله إليه أبو بكر « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك

(١) موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه سوق للعرب

(٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقربه الزميل .

فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل مافعلت فإنه لم يشج الجوع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجى من الناس نزعك فليهننئك أبا سليمان النية والحظوة فأتم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء».

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣، وقد فعل فى هذه السنة مالم يفعله قائد جيش: اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الأبلة إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم فى عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها وكان فى كل عمله فاتحاً لامغيرا فإنه كان يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبى الخراج من أهل الذمة ومن أحسن مايؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لايصبر عن الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان مايخرج طالبا رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده. وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة فى جبين تاريخه ومما يبين عظيم عمله ماقاله الهيثم البكائى. قال: كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون ما شاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهى أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل.

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتتاح العراق فإن أبا بكر فى أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطانى وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التى يتولاها بعد

الفتح فجعل لعمرو فلسطين وليزيد بن أبى سفيان دمشق ولأبى عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التى عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التى سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثون ألفاً .

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالأمر هرقل وكان نازلا بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأى ؟ فراسلهم أن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأى واتعدوا اليرموك[1] ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبى بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلى كل رجل بأصحابه ، بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة[2] وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم وهو لهيب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر فى شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجىء فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبرى ٢٤٠ ألفاً .

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلا

---

(١) واد فى طريق الغو يصب فى نهر الأردن .

(٢) واد فى أرض حوزان .

عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الأمراء وخطب فيهم قائلا إن هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولاالبغى أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولاتقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لايحل ولاينبغى وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته، قالوا فهات فما الرأى قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم الذى كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لاينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولايزيده عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لاينتقصكم عند الله ولاعند خليفة رسول الله هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والاخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعونى اليكم اليوم فأمروه فعبى خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوسا (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوسا وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان وجعل لكل كردوس رئيسا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلا عن الألف وجعل للجيش قاصا يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا فى العدد (الأشقر فرسه) .

وخرجت الروم فى تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا وكان القعقاع يرتجز :

يا ليتنى ألقاك فى الطراد قبل اعتزام الجحفل الوراد وأنت فى حلبتك الوراد

يرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على عكرمة أحامى

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم مقام الموسيقى فى تشجيع القلوب .

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجالهم فى مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم فى الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت فى البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها ما يقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو فى رواق رئيس جند الروم .

وكان لكثير من فرسان المسلمين فى ذلك اليوم القدح المعلى فى الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبى جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ثم ينادى من يبايع على الموت فبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحا وقتلوا إلا من برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما و يقطر فى حلوقهما الماء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء فى ذلك اليوم فى جولة وقتل من المسلمين فى اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان .

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك ياسوريا سلاما لا لقاء بعده .

فى أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاما مكانه فأخذ خالد الكتاب

وأسرّه إلى أبى عبيدة ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه فى كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة ومما يؤثر عن خالد فى هذا اليوم قوله : الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب إلىّ من عمر . والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه

جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لابد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون إن ارتباك الدول التى حاربها المسلمون كان سبباً فى فوزهم هذا الفوز السريع . كان يمكن أن يكون هذا سببا لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان فى ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظما معبئاً أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أنّ الجندى المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين . الأول : ثقته بأنّ العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة ، وهذه الثقة فى قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده ، الثانى أنه واثق بالعاقبة فى الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسنيين إما موت بعده سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ماوفقوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم وقليل كانت أمثالهم فى تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة فى تاريخ أبى بكر : وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التى حدثت بين المسلمين و بين دولتى الروم والفرس فى أيام أبى بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومى .

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذى لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ماوصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها .

إدارة البلاد فى عهد أبى بكر .

كانت الجزيرة العربية هى البلاد التى تحت الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل فى القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأنّ أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده .

(١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبى العاص وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبى أمية وهو الذى ولى فتحها بعد الردة
(٤) حضرموت وواليها زياد بن لبيد (٥) خولان وواليها يعلى بن أمية
(٦) زبيد ورفع وواليها أبو موسى الأشعرى (٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل
(٨) نجران وواليها جرير بن عبد الله البجلى (٩) جرش وواليها عبدالله بن ثور
(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمى.

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها. ولم يكن لأبى بكر وزير وإنما كان عمر يلى القضاء وأبو عبيدة أميناً لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام.

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفى عهده كتب القرآن لأول مرة فى مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً فى الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن فى مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبى بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلا تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ماتصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ولا بد لعيالى مايصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين مايصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذى فرضوه له فى السنة ستة آلاف درهم (بالتقريب ١٢٨ جنيها مصرياً) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ماعندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر؛ فقال عمر: لقد أتعب من بعده. فمن هذا يفهم أن المبدأ الذى اختطه أبو بكر هو أن الخليفة لاينبغى

أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة ، وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال ، والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذى يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ فيه شبهة فى نظر أبى بكر فأمر برده إلى بيت المال .

أرزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان ، وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغير ما ينفله رئيس الجند للممتازين وكان أبو بكر يسوى فى العطاء لا يفضل أحداً على أحد .

أرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال أرزاقهم ويوزع ما بقى على من عينوا فى الكتاب لمصارف الزكاة

وفاة أبى بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموما ١٥ يوماً وتوفى فى مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلا إلى الجهة الشرقية .

المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر — ترجمته — أول خطاب له — الفتوح فى بلاد الفرس — بدء القادسية

٢ — عمر بن الخطاب

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين فى أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد ؛ وكانوا يحسون دائما بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلا للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم

وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرنى عن عمر فقال ياخليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقا ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى شىء أرانى الرضا عنه وإذا لنت له أرانى الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبد الله قال اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا قال أفعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئا ولوددت أنى كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم.

ولما تم له الرأى دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين أما بعد) - ثم أغمى عليه فكتب عثمان - (فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت فى غشيتى قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبرى ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا.

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣هـ ١٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م.

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب بن لؤى وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم ابن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعى إلى الإسلام لم يكن فى بدء أمره مقتنعا بصحة الرسالة

لحارب الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثيراً حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى التى كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامى وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصى بن وائل السهمى ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقنى وراء هذا الوادى ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها . ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل فى الإسراع ببيعة أبى بكر قطعاً للنزاع فى أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبى بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضى وقد أفادته صحبة أبى بكر الأناة فى الأمور وكثيراً غيرها .

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبى بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهى تنبىء عن سياسته التى ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ﴿ إنما مثل المؤمن كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ﴾ والجمل الأنف هو الجمل الذليل المواتى الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ماعنده من السير عفواً سهلا وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤلية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذى لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال.

الفتوح فى عهد عمر

فى بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيبانى ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهى دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر يراز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبى بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه فى الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر فى مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع ياعمر ما أقول لك ثم اعمل به إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم. ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى، وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس: لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

---

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال ﴿ليظهره على الدين كله﴾ والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين - فكان أول منتدب للسير أبو عبيد بن مسعود الثقفى ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فأقر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب ؛ والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف فسار أبو عبيد بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة - كان الفرس فى ذلك العهد قد ولوا عليهم آزر ميدخت ملكة واختارت هى رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاما للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبى عبيد .

كان أول ماصنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسى من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام فى النمارق(١) لما رأى ذلك المثنى ضم إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار إلى النمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان : إنكم معاشر العرب أهل وفاء ؛ فهل لك أن تؤمننى وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فأدخلنى على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد مافعل الربعى ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ماترونى فاعلا معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر(٢) لاجئين إلى نرسى فاجتمع إليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ماكان حول معسكرهم من كسكر ؛ وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم

---

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق (٢) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطاً خسر وسابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونهيا وميسان ودست ميسان .

بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيما يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة [1] موضع البرج والعاقول فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأى وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفى آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمى المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم.

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل فى هذه الواقعة غلطتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه عن العبور فلم ينته والذى زاد تلك الغلطة تأثيرا ما فعله ذلك الرجل الأحمق عبدالله بن مرثد الثقفى من قطعه الجسر عند ما رأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم.

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير ابن عبدالله البجلى فى قومه من بنى بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا إليه حتى يقابلوه على البويب [2] وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك فى رمضان وقد أمر

---

(١) على شاطىء الفرات الغربى تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة.

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات.

المثنى بالإفطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلا يستوفز ويستقتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال إنى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب فى هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلا وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا فى الهزيمة سبقهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا فى البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ماقدر بمائة ألف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه فى قطعه الجسر وإحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع ثم أرسل المثنى فى أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب[1] بعد أن عقد لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التى أوقعت الرعب فى قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف فى وجوههم محارب .

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب فى الجزيرة ويبث السرايا للإغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل فى جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم فى الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوما من أيامهم فى الجاهلية أحرقوا فيه قوما من بكر بن وائل فى غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم . كانت لعمر عيون فى كل جيش فكتب العين إلى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل واعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذى هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمستنافان فى أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وإنه لم يبلغ من خطر كما أن تقركما فارس على هذا الرأى وإن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا فى كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأى وجدا رجلا يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانبار والمسالح والإبلة . بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج مثنى على حاميته حتى نزل بذى قار (٢) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذاقار ونزل الناس بالجل (٣) وشراف (٤) إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضا إن كان فزع تم ذلك فى ذى القعدة سنه ١٣

أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل فى ذى الحجة سنة ١٣ لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التى طرفها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المثنى

---

(١) بينها وبين الكوفه ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهى على جادة الكوفة

(٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط

(٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينها وبين الفرعا ٦٠ ، ميلا

(٤) بين واقصة والفرعاء ومن شراف إلى واقصة ميلان

فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار (١) فعسكر به ولايدرى الناس مايريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى فى إمارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذى يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ماتريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر مايقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه فى رفق فقال استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يجيء رأى أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأى فاجتمع إليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فإن كان مايرجو من الفتح وإلا عاد رجلا وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى على وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن الله قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لايخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر مااجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم مارأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لهم أيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) وهذا الخطاب يبين ماكان يدور فى رأس عمر من النظام الشورى ويوضع الأساس لذلك النظام. ثم أجال معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيسا ولاذا شرف ولاذا رأى ولاذا سلطة ولاخطيبا ولاشاعراً إلارماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم.

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية — فتح المدائن

ثم أمر سعد بالمسير وقال انتهيت إلى زرود(١) فأنزل بها فسار حتى إذا وصل إلى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بنى تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر. وفى ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى فاؤا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم. ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب إلى بالذى يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر به فقدر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الاجناد وعرف العزاف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلا من الناس لهم وسائل فى الإسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية بلون الأمير، ويليهم أمراء الأعشار، ثم أصحاب الرايات، ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبية وبإذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف:

أما بعد: فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤودا لبحووه وفيوضه ودآدئه(٢) إلا أن توفقوا

---

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة.

(٢) الدآدى، ما اتسع من التلاع وهى مسايل الماء.

غيضا من فيض وإذا لقيتم القوم أو أحدا منهم فابدءوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهيت إلى القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة . وكتب إليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة .

ثم جاء كتاب آخر يقول فيه ـ واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية ـ فكتب إليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق[١] والعتيق وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح[٢] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر ؛ وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحضوض[٣] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[٤] والحيرة وأن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى

---

(١) خندق سابور فى برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفا من شرهم وأوله من هيت يشق طف البادية إلى كاظمة مما يلى البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعا لأهل التادية من السوار

(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناء أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقى الفرات وغربيه بساتين

إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاء مسلم إلى ماقدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر فى عافية - فكتب إليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالأمانة قوله له إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو لسان كان لايدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك الوفاء للوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسببا لتوهينهم .

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضى بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوما عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من المعسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ماجاء بهم ومادعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجممنا كم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ إرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين سن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهوَن من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قاتلناكم فقال يزدجرد إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوننا إياكم لاتغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال

أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هى ظهر الأرض ولا نلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا إلا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له وأتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إنى أنا الله وحدى لا شريك لى كنت إذ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شىء وإلىّ بصير كل شىء وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ولأحلكم دارى دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتى ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك فقال كسرى أتستقبلنى بمثل هذا فقال ما استقبلت إلا من كلمنى ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شىء لكم عندى ثم قال ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى

أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين. فصل رستم من المدائن فى تعبية كبرى وعدد جنده ١٢٠ ألف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيرا ومما قيل فى مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لايستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لايستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى اليوم فعلمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربى وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة.

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق ففكر ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقيما بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الأمر والنهى إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام فى الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التى كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الأسدى وهو يقول:

قد علمت واردة المسائح ... ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمام البطل المشايح ... وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب   مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب   مثلى على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهى علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببنى أسد وكان لهم فى ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الأسدى ولم يكن للمسلمين حيلة فى الفيلة هذا اليوم إلا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها فتنفس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر فى صفوف الفرس فى هذا اليوم ويسمى يوم إرماث

وفى اليوم الثانى نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التى أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاؤا بالإبل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل فى اليوم الثانى مالقيت جنود المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح .

وفى اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب فى العتيق فتبعته الفيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين ومازال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله ومازال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع فى الناس

يقول لهم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كابيان ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتى أجلوهم إلى ماوراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً .

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم)

كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان فى كل يوم يخرج متنسما أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفى اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال ياعبدالله حدثنى قال هزم الله العدو وعمر يجرى وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك ياأخى فقرئ كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهودا ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيه (إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب

علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإنا فى أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر فى الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وإن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شاؤا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول.

(أما بعد فإن الله جل وعلا أنزل فى كل شىء رخصة فى بعض الحالات إلا فى أمرين العدل فى السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه فى حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ولا فى شدة ولا رخاء وإن رؤى لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشىء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب فى الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم وأبلغوهم مأمنهم) وكتب جواب الكتاب الثانى

(أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم. وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم فى أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) - فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا فى الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهى والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر

السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤس الرجال على مافى أيديهم من الحصة والأموال - ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لأنه كان متفرقا فى السواد فكان يليه لأهل الفىء من وثقوا به وترضوا عليه .

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الأبلة لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الأبلة لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ، ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبلة وهى مرفأ فارس على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها فى رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيما تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة .

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان فى المعسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمركان النساء يلعبن به فى زرود وذى قار وتلك الأمواه حين امروا بالمسير فى جمادى إلى القادسية وكان كلاما أبدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادى ورجب شىء

العجب كل العجب　　بين جمادى ورجب　　أمر قضاه قد وجب

يخبره من قد شجب　　تحت غبار ولجب

ثم إن سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرسانا مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم فى سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حربا غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر . فأقام سعد ببابل أياما ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهرسير وهى المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى وتلاحقت به الجنود وفى مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت إلى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد ببهرسير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على

مخاضة يعبرون منها إلى الجهة الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فإن الفرس كانوا قد ضموها إلى الشاطىء الثانى وكان سعد قد أعد فصيلة تحمى الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضاً والذى جعل سعداً يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل مافى المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن مايفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربا على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالى المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمين لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة فى المدائن فى صفر سنة ١٦ ، ثم جمع سعد مافى خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من النجائب شىء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شىء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك ، وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعا فى مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المقبلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ، ثم قال أشيروا علىّ فى هذا القطف ، فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك إلا ما كان من على فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ماليس له فقطعه عمر بينهم .

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبى وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدا ابنى عمر بن مقرن الخراج الأول على ماسقت دجلة والثانى على ماسقى الفرات .

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولا - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز - غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند ومابعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس إلى جلولاء كانت هى مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب وإلى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإن كان لنا فهو الذى نريد وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذراً فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازى وأقام يزدجرد فى حلوان وصار يمدهم بالرجال والاموال فأقاموا فى خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم فأرسل سعد بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح إليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن فى صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) فى اثنى عشر ألفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم، ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم فى خندقهم واقتحامه فصادفوا فى سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الرى فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لانها هى الثغر الذى يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر فى ذلك الوقت أن يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال فى كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد وإنى آثرت سلامة المسلمين على الانفال.

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفىء مع زياد وكان هو الذى يكتب للناس ويدونهم

فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب فى صدرى منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك فقام زياد فى الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجرلهم ما أجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبت إليك فى قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية فى غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوما تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً فى جميعها يظفر المسلمون وفى أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا إليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم، فتبادروا إلى الأبواب التى عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان[1] فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء[2] يقودها عمر ابن مالك فافتتح فى مسيره هيت[3] وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء.

وبذلك صار السواد كله فى يد المسلمين، فمهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال.

---

(١) كورة بها عدة مدن : منها أربوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همذان.

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور فى الفرات فهى مثلث بين الخابور والفرات.

(٣) بلد على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية.

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى فى أوجههم تغيرا فقال عمر (والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرنى ماالذى غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب إليه عمر إن العرب لايوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فايرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر، فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربى الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جندآ ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين فى خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن. جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدى وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شىء وفى القطائع ستين ذراعا.

فأول ماأسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام فى وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله دارآ بينهما طريق منقب مئتى ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذى بناه له فارسى كبناية الأكاسرة فى الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذى وضعت عليه الكوفة ينبئ عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها.

وفى هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهى وإن نزلها المسلمون

سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا فى السنة التى اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس فى الزمن التى مصرت فيه .

وكانت ثغور الكوفة فى ذلك الزمن أربعة حلوان [١] وماسبذان وقرقيساء والموصل [٢] وأميرها سعد بن أبى وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين .

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة .

فتح الجزيرة [٣]

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداها يقودها سهيل بن عدى لفتح الرقة والثانية يقودها عبد الله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن ذلك يكسر شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان فى ذلك تخفيفا على جنود الشام .

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطلب خموا وتركوا أرضهم وأوغلوا فى أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم .

---

(١) فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقى نينوى وهى من المدائن الإسلامية الكبرى

(٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسجنار والخابور وماردين وآمد وميا فارقين والموصل وغير ذلك .

فتح الأهواز (١)

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان بغير على مابيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسمد له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان .

ثم كاتبهم الهرمزان فى الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومهرجان قذق (٢) ماعدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين ؛ ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة حلاف فى حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الأهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان فى الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على مالم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل إليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندى لمصدق وقد رأيتك رجلا فأخبرنى أ أن ظلمت الذمة ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ماتحب قال فنعم إذا . انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونا وناصرا

---

(١) مجموع كور عدها ياقوت عشراً وهى سوق الأهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندى سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر .

(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحى الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق إلى همذان فى تلك الجبال .

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمى أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبى وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود مايلى السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً فى الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فتسرعوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم فى البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا. عبرت تلك الجنود فخرجوا فى اصطخر (١) وبإزائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرك الفارسى قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا فى موطنهم وامتنعوا.

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل إليه يعزله. أمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد. كتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء. فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا فى اثنى عشر ألفا وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد فى طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه. خلصوا إخوانهم وهذه هى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت أمصار ثم انكفئوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة.

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر فى الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات فى بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائرا لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

---

(١) مدينة كبيرة لفارس وهى قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول ازدشير إلى جور.

فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس(١) وهو بمروف كتب إليهم يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والأهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب أمراء الثغور إلى عمر فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى الأشعرى وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً إلى الأهواز يقوده سهل بن عدى وأمير الجندين معاً أبو سبرة بن أبى رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز والحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلى تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل فى الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالا وفى آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فنهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولما رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لأخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو فى المسجد نائم ودرته معلقة فى يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هوذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغى أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الأهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية

---

(١) فارس اسم لولاية وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ، ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس : ١ - اصطخر ٢ - أردشير ٣ - دارابجرد ٤ - سابور ٥ - قبادخرة .

كأن الله قد خلى بيننا و بينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم و تفرقنا ثم قال عمر ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشرب به فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لى فى الماء إنما أردت أن استأمن به فقال له عمر إنى قاتلك قال قد أمنتنى فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين أمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشرب به وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم ؛ فأسلم . ففرض له فى العطاء على ألفين وأنزله المدينة .

ثم قال عمر للوفد : لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى و بأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا وأن ملك فارس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح .

فتح نهاوند(١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل(٢) جنوبى همذان فكتب عمر إلى النعمان

(١) مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهى أعتق مدينة فى الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهى ما بين أصبهان =

ابن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد إليـه الجنود من البصرة والـكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيما متحصنا فى حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شاؤا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى فى الحروب ممن معه وقال لهم قدترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمداثن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشاؤا وقدترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيـه فما الرأى فتكلم عمرو بن ثبى وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدى فقال أرى أن تبعث خيـلا تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم فى طول ماقاتلناهم إنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربى المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً وفى أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ماحولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً .

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح فى بلاد الفرس كما أشار عليـه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالألوية إلى أصحابها وهم :

= إلى زنجان وقزوين وهمدان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليلة والـكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط .

(١) الأحنف بن قيس التميمى ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن مسعود السلمى ووجه إلى أردشير خرة وسابور (٣) عثمان بن أبى العاص الثقفى ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زنيم الكنانى ووجه إلى فسا ودرابجرد (٥) سهيل بن عدى ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى سجستان (٧) الحكم بن عمير التغلبى ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتتح سنة ١٨ ﻫ

فتح أصبهان [١]

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جىّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبد الله لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لى فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتنى سالمك أصحابى وإن كان أصحابى لا يقع لهم نشابة فبرز له عبدالله وقال إما أن تحمل علىّ وإما أن أحمل عليك فقال احمل فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جىّ بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان فى حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جىّ واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجىّ خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدى.

فتح أذربيجان [٢]

بينا نعيم بن مقرن فى همذان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم فى واج روذ بين همذان

---

(١) إقليم من نواحى الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية (٢) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجيل والديم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة

وقزوين فسار إليهم وقاتلهم فى ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرى [1]

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار إلى الرى فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبى بن قولة وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جراجان [2] بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان .

فتح الباب [3]

كان قائد الجيش الذى وجه إلى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبدالرحمن ابن ربيعة فلما أطال عبدالرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمنا ليأتيه فأمنه عبدالرحمن فجاءه الملك وقال له إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبح فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبدالرحمن فوقى رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبدالرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه وكان فى كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء

---

(١) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب إليها رازى (٢) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٣) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به. وهذه سنة حسنة فى عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين فى الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة.

فتح خراسان (١)

كان يزدجرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمأن فى نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقى من الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصغد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو الروذ حتى إذا بلغ ذلك يزدجر سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر بمن معه فى أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده. ولما عبر يزدجر النهر أتته جنود مدداً من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجر ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقدوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة فكانوا كأنهم فى ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا.

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان.

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلى ثم فتح فسا ودارا بجرد وفتح عثمان بن أبى العاص اصطخر. وفتح سهيل بن عدى كرمان وفتح عاصم بن عمرو سجستان، وفتح الحكم بن عمرو التغلبى مكران.

ومما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعى فإن عمر ولاه قيادة جيش

---

(١) بلاد واسعة فى شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو ونيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التى دونها نهر جيحون

لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئاً من حلية فقال إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ومؤنة ؛ قالوا : نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية فى سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة ، فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس ؛ فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك ؛ ثم أدبر فاتبعه فدخل داراً ، ثم دخل حجرة ، فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه ، فإذا هو جالس على مسح ؛ متكىء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها ، وإذا بهو فى صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم ، غداءنا فأخرجت إليه خبزة بزيت فى عرضها ملح لم يدق ؛ فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا ؛ فقالت : إنى أسمع عندك حس رجل ، قال نعم : ولا أراه من أهل البلد ، قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته ، قال : أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ، ثم قال : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا ، قال : فأكلت قليلا وطعامى الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه ، ثم قال : اسقونا ؛ فجاءوا بعس من سلت ، فقال أعط الرجل ، قال فشربت قليلا ، ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته ، فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس ، قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله ؛ حدثنى عن المهاجرين كيف هم ، قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم ، قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها ، قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ، ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلمة ، فلما نظر إلى فصوصها وثب ، ثم جعل يده فى خاصرته ثم قال : لا أشبع الله إذا بطن عمر ، ثم قال ماجئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم ؛ لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة ، قال : فارتحلت حتى أتيت سلمة ، فقلت ما بارك الله فيما اختصصتنى به اقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وإياك فاقرة فقسمه فيهم .

ولست فى حاجة إلى أن أنبهكم إلى مايؤخذ من هذه الحادثة فهى تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى فى بيت أمير المؤمنين ، وكانت المرأة تتكلم فى شأن نفسها كما يتكلم أعظم الرجال نفساً ، ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شىء قد طابت به أنفسهم ، ومع ذلك لم يرض إلا أن يردها عليهم فكيف لاتكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب وإلى هنا انتهى مانريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائياً بين أيدى المسلمين ، فقد صار إليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندى ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك فى زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم فى جميع المواقع التى زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون فى أمره ، كما كان يوصيهم خليفته دائما ، وعرفوا بالعدل فى حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة ، وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق والمدنية فى عهد عمر عند الفراغ مما كان فى أرض الروم .

تم الجزء الأوّل ويليه الجزء الثانى

فهرست الجزء الأول

من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تمت فهرست الجزء الأول

محاضرات

تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الجزء الثاني

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى : شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الخامسة : سنة ١٣٦٦ هجرية

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة والعشرين

الفتوح فى بلاد الروم - فتح حمص - فتح بيت المقدس

الفتوح فى بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك فى أول خلافة عمر ، فى أثنائها جاء الخبر بموت أبى بكر واستخلاف عمر وتولية أبى عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت إمرته بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل[1] من أرض الأردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد ، وهنا التقت الفئتان فانهزم الروم ودخلت المسلمون فحل وسار الروم إلى دمشق فكانت فحل فى ذى القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ، ثم ساروا إلى دمشق[2] وخالد على المقدمة فحصروها ونزلوا حوالها فكان أبو عبيدة على الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقى مما يلى باب خالد مقاتل إلا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامى والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً بهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شىء من أمر العدو عيونه زاكية وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالا كهيئة السلاليم واوهاقا فبلغه ذات ليلة أن الناس غافلون فى فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وأمثاله وقال للجند إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا للباب فلما انتهى إلى الباب الذى يليه هو وأصحابه المتقدمون ، رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم

---

(١) من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين .

(٢) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية فى عهد الدولة الأموية

القرب التى قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها والأوهاق بالشرف وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخلا وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أو دنا من الباب حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمى ذلك المكان لمن يرتقى وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الذى أراد عنوة أرز من أفلت إلى أهل الأبواب التى تلى غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحا وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحا وبعد أن تم أمرها جاء كتاب عمر لأبى عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به .

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفى الصباح رأوا الأرض خلوا من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبى سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج إليه محاربا وبينما هما يتحاربان قدم خالد فأصاب الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد إلى دمشق وعاد خالد إلى أبى عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جند شنس إلى حمص .

فتح حمص (١)

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة

---

(١) بلد قديم فى شمال دمشق بينها وبين حلب فى نصف الطريق

محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصبهم شيء تراجعوا إلى الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم أرسل خالداً إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر (١) زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم. ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى وقال فى حقه هو والمثنى بن حارثة إنى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما. ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا فى أمرهم وذكروا ما لقى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية (٢) على يد معاوية بن أبى سفيان وفتحت أجنادين (٣) على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر ابن الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون فى نفسه والله إن هذا لعمرو أو أنه للذى يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فإذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت منى وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع منى موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكاتفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلا فساره وقال اذهب إلى فلان ورده إلى فرجع إليه الرجل وقال لعمرو اذهب لجىء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومى بأنه

(١) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب

(٢) بلدة على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديما من أمهات المدن

(٣) من نواحى فلسطين من كورة بيت جبرين

قد خدعه فقال خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق (١) ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إن أرطبون انهزم من الناس فآوى إلى إيليا ونزل عمرو أجنادين .

فتح بيت المقدس

كانت إيلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولى لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولى على فلسطين وإيليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا فى الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب فكتب إليه عمرو بذلك فسار إلى الشام وهى أول خرجة خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لفتم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الرأى وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ماندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين إنها يلامقة وإن علينا السلاح قال فنعم إذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءته رسل أهل إيليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى

(١) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق وإلا كانت دليلا على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركا جنده من غير راع لهم خصوصاً إذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص .

بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) شهد على ذلك خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الأمان شخص إلى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القمامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا فلما قضى صلاته قال للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرنى موضعا أبنى فيه مسجدا فقال على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردما كثيرا فشرع فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد أن قسمها أقساما وجعل فلسطين ولايتين إحداهما الرملة والأخرى قصبتها إيلياء — ومما يزيد المسلم شرفا تلك المعاملة الباهرة التى عامل بها سلفه مغلوبيهم من الوفاء والعدل فإذا قارن ذلك بما أصيب به أهل إيلياء حينما فتحت على أيدى الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين .

وفى سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والأنصار فسار حتى إذا نزل بسرغ [1] لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع إلى المهاجرين الأولين قال فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل إنه لبلاء وفناء ما نرى أن نقوم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى . ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الأنصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام .

ثم قال اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس أصرخ فى الناس فقل إن أمير المؤمنين يقول لكم إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فلما اجتمعوا قال أيها الناس إنى راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله قال فرارا من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس فلما أخبر الخبر قال عندى من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لايخرجنكم إلا ذلك فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم.

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر مافعله عمرو فما كرهه.

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر فى أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتى الشام فنظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (ألا وإنى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم إلى أن قال - فمن علم علم شىء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ولاقوة إلا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقى أحد كان أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء. وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره صلى الله عليه وسلم ثم رجع عمر إلى المدينة

وفى عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمى:

ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص فى محاضراتنا أحببنا أن نرجئ تفاصيل فتحها إلى الوقت الذى نتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقا.

هذا ماكان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب فى مدة لاتزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام وأديرت البلاد على مقتضى العدل الإسلامى فتقبل الناس حكمه مسرورين، لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة.

ولما كانت حياة عمر ممتازة بما كان فيها مما جعل بعد أساساً عظيما لكثير من المدنية الإسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس، متأسياً فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبى بكر الصديق.

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر فى عماله — معاملة عمر للرعية
عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصح
رأى عمر فى الاجتماعات — وصفه وبيته

القضاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندى وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضياً بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها إلا ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه، ومن طرفه فى القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال إنى رجل من أهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا، قال قد حكمت، وهو الذى قال: حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نقم عليها شيئاً فضربها.

رأيت رجالا يضربون نساءهم * فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به * فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب * إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفى سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبى العاص السهمى حسبما جاء بكتاب القضاة الذين ولوا مصر فهو أول قاض قضى بها فى الإسلام .

وولى أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة : ومن أعرف من ولاهم أبو موسى الأشعرى ولما كان العهد الذى ولاه به مما يبين لنا شيئا من نظام القضاء وأصوله . أحببنا إيراده ودونكموه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد فإن القضاء فريضة (١) محكمة وسنة متبعة فافهم (٢) إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له : آس (٣) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح (٤) جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا . لا يمنعنك (٥) قضاء قضيته اليوم

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التى يقضى بها وهى لا تعدو ماحده الله وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ما أشار إليه بالسنة المتبعة (٢) يريد أن من يدلى بحجته مهما يكن مصيبا بليغا فإن كلامه لا ينفعه إذا لم يكن لكلامه نفاذ إلى قلب القاضى وذلك لا يكون إلا بالتنبه لما يقال من الخصوم

(٣) هذا أساس المساواة التى بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضى إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وإن نجا من مغبتها اليوم فإنه ليس بناج غداً (٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذى راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور .

(٥) يريد بذلك أن القاضى لا يتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به فى قضيته فإذا ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا

فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل : الفهم الفهم (١) فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عندذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل (٢) لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه فإن أحضر بينة وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجل للعمى . المسلمون (٣) عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أوظنيناً فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك (٤) والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس

= وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم فى حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ماقضينا وهذا على مانقضى .

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق مالم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من أجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفاً بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره فى تفسير أو تأويل

(٢) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذى ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه .

(٣) يشير بذلك إلى أصل عام وهو أن الأصل فى الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض مايفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الأول الجلد فى الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لأن الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . الثانى المجرب عليه شهادة الزور . الثالث الظنين فى الولاء أو النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم أو يكون لهم نسب فى قبيلته فينتسب إلى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون فى زمننا كذلك .

(٤) يشير بذلك إلى مايجب على القاضى من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حريته فى الدفاع عن نفسه

وماتخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك .

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم إلا سهلا مجرداً عن النظامات الوضعية وكان للقاضى الكلمة العليا فى قضاياه أعنى أنه مستقل تمام الاستقلال فى قضائه لايمنعه شيء أن يحضر إلى مجلسه الأمير فمن دونه .

سيرة عمر فى عماله

كان عمر ممن يشترى رضا العامة بمصلحة الأمراء فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لايعدله شيء من أخلاقه إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يسوى بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله .

وسواس الأمم على اختلاف فى ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يرى ذلك أهيب لمقام العامل فى نظر الرعية وربما استحسن ذلك فى عهد الاضطرابات التى يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف فى قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولعل ذلك لما كان فى عهده من الاضطراب فى الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأى لأن مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقر فلم يكن هناك مايدعو إلى مراعاة هذه السياسة .

كان إذا بعث عاملا على عمل يقول اللهم إنى لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى . وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الأمصار أنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه لى : وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إنى لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل وإنى لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا

العرب فتذلوها ولا تجمهروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم. وخطب مرة فقال أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمهروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم. وكان للوصول إلى ما يريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة فى الموسم، موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها وإذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رؤس الأشهاد فى موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أى إنسان

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الأفراد فقد استحضر سعد بن أبى وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن ومصر الكوفة وكان الذى شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئا. واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوى الأثر الصالح فى الفتوح الإسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذى جمع فى كلمه القليلة أن عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرا فسلم ما فى يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذى فرضه الله لمثلهم: وشكى إليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم إنه لا يدرى علام استعمل فاختبره عمر فى ذلك اختبارا أيدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الإجابة فى بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتنى وقد ساءنى

حين عزلتنى فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنى تأولت قوله تعالى ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به من عمر فى كل أيامه إلا القليلين وفى مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله إلى كل شكوى ليحققها فى البلد الذى حصلت فيه ، وكان ذلك العمل موجهاً إلى محمد بن مسلمة الذى كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلا لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سرياً وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً وعلى ملأ من الأشهاد ولم يكن هناك محل للتأثير فى أنفس الشهود لأن يد عمر كانت قوية جدا وكان لكل إنسان الحق أن يرفع إليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً .

وقد شاطر عمر بعض العمال ما فى أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل إلا قليلا وربما وجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من عماله من يستحق أن تقع به تلك العقوبة إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها : لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة . ولى عتبة بن أبى سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ما هذا يا عتبة قال مال ما خرجت به معى واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك فى هذا الوجه فصيره فى بيت المال . وكانت التجارة هى التكأة التى يتكىء عليها بعض العمال فى ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتا ، وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية .

معاملته للرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته ورفقه على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسؤولية عظمى فكان يقول لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبى رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا فتأتيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفى قال الحسن البصرى

قال عمر لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى أما عمالهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم فى كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال يا أسلم إنى أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأدنو قالت أدن بخير أو دع فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأى شىء فى هذا القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر فقال أى رحمك الله ما يدرى عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال احمله على قلت أنا أحمله عنك قال احمله على (مرتين أو ثلاثاً) كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال فى آخر ذلك : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذرى على وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغى شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً إنك أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولى خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول إن لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم .

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل عن روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولى عليهم من الرعية .

خطب مرة فقال أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم

وأقواكم عليكم وأشد كم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ماتوليت ذلك منكم ولكنى عمر مهماً محزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربى المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده لم يكن عمر يستعمل فى تأديب الناس إلا درته وهى عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائما فى يده أنى سار وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة .

روى الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال أمط الطريق فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال ياسلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدى فانطلق إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك قلت ياأمير المؤمنين ماذكرتها قال وأنا مانسيتها فعمر كان مؤدبا حكيما ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة .

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال إنك أقبلت لاتهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك والذى أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لايرى منها بديلا .

كانت الرعية - مع هذا تهابه مهابة شديدة . روى أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا عبدالرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبدالرحمن بن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لأنا أشد منهم فرقا منهم منى .

عفته عن مال المسلمين

كان يحبب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده إليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخيما لمن رتع فيه حتى أنه كان يقتر على نفسه تقتيراً ربما وجد مساغا لاعتراض قصار النظر . كان عمر يرى أنه لاينبغى أن يأكل إلا بما يأكل منه أقل رعيته لايتجاوز ذلك إلى مافوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال

بهم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فإذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده مايسدد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه ولما رأى بعض الصحابة مايعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر فى زيادة نزيدها إياه فى رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ماعنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر فى ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوأنهم قالت لا سبيل إلى علمهم قال أنت بينى وبينهم ما أفضل مااقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفا من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأى مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه فى الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجيه وإنما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم اتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما.

وكان يتحاشى أن ينتفع أحد من آل بيته بشىء ليس له فيه حق روى مالك فى الموطأ أنه خرج عبدالله وعبيدالله ابنا عمر بن الخطاب فى جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقال وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال أكل الجيش أسلفه قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه أديا المال وربحه فأما عبدالله فسكت وأما عبيدالله فقال ماينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبدالله وراجعه عبيد الله فقال رجل من جلساء عمر ياأمير المؤمنين لو جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح

المال قالوا هو أول قراض فى الإسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد اليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لاخير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذى لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئا فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها فى صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة . وكان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شىء جمع أهله فقال إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة .

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر إذا نزل به الأمر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير فى أمر أبرم من غير شورى وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به . ومن قوله فى ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن قام بهذا الأمر تبع الأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لهم فجعل أولى الأمر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع ما أخذ به الامام من رأى أولى الرأى . وكثيراً ما كان يرى الشىء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأى مرة مغالاة الرجال فى مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد

قال الله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينون له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافا عن القصد قال مرة فى خطبته أيها الناس إن أحسنت فأعينونى وان صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا فسره ذلك . وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لايكاد يفارقه فى سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم .

رأى عمر فى الاجتماعات

كان عمر يميل إلى أن تكون مجتمعات الناس عامة يهوى اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم إلى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغنى أنكم تتخذون مجالس لايجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وايم الله إن هذا لسريع فى دينكم سريع فى شرفكم سريع فى ذات بينكم ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان قد قسموا الإسلام أقساما أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معافإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس . وفى الحق إن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيع كثيرا لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيد فائدة كبرى وهى نقل أقوالهم غير محرفة ولامشوبة بما يطمس حقيقتها ثم إن كثرة المجالس تدعو بدون ريب إلى كثرة الاختلاف فى المسائل التى تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة فى الدين والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتى قد وقع فكثرت الآراء المنقولة من أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس فى الدين اختلافا عظيما .

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب مايصلحها ويكره مايفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولاضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع

الشىء فى موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحى إليه الظروف التى هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف مايصلح أنفسها فسيرها فى الطريق الذى لاتألم السير فيه فصيرها أمة حرة لاتستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان ولذلك نقول إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التى تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة فى الدنيا بأسرها وإلافأين ذلك الرجل الذى يفنى فى مصلحة رعيته ولايرى لنفسه من الحقوق إلا كالأدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها . العربى يستدعى سياسته حكمة عالية فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك وإن لنت معه ليكون رجلا نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لاتهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا فى رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون لم يجمعوا صفات عمر التى مجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أى خليفة فى أى زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول .

بيت عمر

تزوج عمر فى الجاهلية زينب ابنة مظعون من بنى جمح من قريش ؛ فولدت له عبدالله وعبدالرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين .

وتزوج فى الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة : فأولدها عبيد الله وقد فارقها فى هدنة الحديبية .

وتزوج قريبة ابنة أبى أمية من بنى مخزوم وقد فارقها فى الهدنة .

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة .

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصماً وهذه طلقها .

وتزوج أم كلثوم بنت على فولدت له زيداً ورقية ومات عنها .

وتزوج لهية وهى امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر

وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمر .

وخطب أم كلثوم بنت أبى بكر وهى صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت الأمر إليك فقالت أم كلثوم لاحاجة لى فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته

فقال أكفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغنى خبر أعيذك بالله منه ، قال ماهو قال خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ، قال نعم أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك ومانقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير مايحق عليك ، قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر ـ عثمان وكيف انتخب ـ ترجمته ـ أول قضية نظر فيها كتبه إلى الأمصار ـ أول خطبة له ـ الفتوح فى عهده

مقتل عمر

ماكان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس فى مكنة إنسان أن يرضى الخلق كافة فإن عمر إذا كان قد أرضى العرب بما صنعه لهم وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى السلطان عليهم ، لأنه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم .

كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون إلى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد .

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوما فى السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة ابن شعبة فإن على خراجا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وإيش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال قد

بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال فاعمل رحا قال إن عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدنى العبد آنفا ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوراة قال عمر والله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وإنه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ماترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر ، أو أنه كان عالما بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فماذا يدعو كعباً إلى إنباء عمر بهذا النبأ ، والجواب على ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيما فإن كثيراً منهم يرون بعد ذلك أن توراته فيها علم كل شىء وأنه صادق فى كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة فى تصديقه بما يوحى إليه ، وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الأخبار الإسرائيلية التى لا ندرى حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه .

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر إلى صلاة الصبح وكان يوكل بالصفوف رجالا يسوونها فإذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته ، وهى التى قتلته وقتل معه كلوب بن أبى البكير الليثى وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفى الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال اخرج فانظر من قتلنى قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والأنصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل فى الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول :

فواعدنى كعب ثلاثاً أعدها ولا شك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء فى حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته وروى أن طعنه كان يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة من متوفى أبى بكر . والصحيح الأول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه .

٣ — عثمان بن عفان

كيف انتخب

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعد، فتردد وقال إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يريد أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالما شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا فى أموركم ماحمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شراً فشرعنا إلى الله حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسى وحرمت أهلى وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إنى لسعيد .

ثم كرر عليه القول بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة على وعثمان ابنا عبدمناف وعبدالرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير

ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوا واليا فأحسنوا موازرته وأعينوه إن ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائبا) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شىء له من الأمر وقم على رؤسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما فإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة وقيل فى حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم فى الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ثم أجلس فى بيتى فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطنى ميثاقا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة فقال عبد الرحمن أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله وبذلك صار الأمر فى عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التى يستكمل فى صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير

فى مؤخر المسجد فى الصفة التى تلى دار مروان فقال له خل ابنى عبدمناف وهذا الأمر فقال الزبير نصيبى لعلى . وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لى فأختار قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا إسحق إنى خلعت نفسى منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ثم قال لا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى على فجاء فناجاه طويلا ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى التج المسجد بأهله فقال أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ودعى عليا فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك على تأخر وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع على يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ .

ترجمة عثمان :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الأخلاق الكريمه والسيرة الحسنة حيا عفيفا ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السابقين الاولين أسلم على يد أبى بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهده ولكنه لم يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقية التى توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له

الرسول فى غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان فى عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما توفى عليه السلام كان لأبى بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار فى مهام الأمور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م) .

أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبى لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا فى دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبى بكر غداة طعن عمر مررت على أبى لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فانظروا بأى شىء قتل فجاؤا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التى وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبى وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر فى أمره فلما بويع عثمان جلس فى المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والأنصار أشيروا علىّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم قد جعلتها دية واحتملتها فى مالى وكان ذلك حلا حسناً لتلك المشكلة .

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

كتب عثمان إلى أمراء الأمصار كتابا عاما هذه صورته (أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء).

وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور (أما بعد فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان على ملأ منا ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه).

وكتب إلى عمال الخراج (أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما كتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم).

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار (أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر فى العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا).

أول خطبة له

وكان أول خطبة له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (إنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم أصبحتم أو أمسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا، بمن مضى؛ ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم.

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا).

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه:

(١) مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعى

(٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

(٣) صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف

(٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبى ربيعة

(٥) البحرين وماوالاها وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى وهذه الخمس فى الجزيرة العربية (٦) الكوفة ومايتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

(٧) البصرة ومايتبعها وأميرها أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعرى وهاتان بالعراق

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان الأموى

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمى

الفتوح فى عهد عثمان

كانت مغازى أهل الكوفة الرى وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى وكان بالكوفة إذذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأبيد الفتح الإسلامى فى تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو وإعادة من شق العصا إلى الطاعة ففى عهد إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ماكانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ماكانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة الباهلى إلى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة.

وفى عهد إمارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان (١) سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا على والعبادلة أبناء عباس وعمر وعمرو بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح .

وفى سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى فى بلاد الخزر (٢) حتى وصل بلنجر وهى أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن أخوه سلمان .

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففى عهد إمارة عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفى عهد إمارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية .

وفى سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر فى جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار إلى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان (٣) ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار إلى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة .

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبى سفيان وكانت له غزوات مع الروم

---

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الرى وقرمس والبحر وبلاد الديلم والجيل

(٢) هى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند

(٣) ولاية واسعة من نواحى خراسان وهى طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقى بلخ وغربى نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربى جيحون أيضا إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب فى الشرق من العليا وأكبر مدينة بطخارستان : طالقان

فبلغ عمورية وأسكن الحصون التى فى طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فصار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتى وصل تفليس[1]

وفى سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً مايتمنى غزو الروم فى البحر إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين كتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه فكتب إليه عمرو (إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق) فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً) .

فلما كان زمن عثمان أذن له فى ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ؛ ففعل ، وسار إلى قبرس وأمده من مصر عبدالله بن سعد ابن أبى سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحاً على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم .

وقد رتب معاوية أمر الغزو فى البحر وأعد لذلك أسطولا جعل أميره عبدالله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة فكان يغزو كثيراً مابين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ولكنه خرج فى يوم طليعة فى قارب فانتهى إلى المرفى من أرض الروم فنذر به فتكاثروا عليه وقاتلوه .

وأما فى مصر ؛ ففى عهد عمرو بن العاص انتقضت الإسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره إليهم أحد قواده فى أسطول عظيم فسار إليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور الإسكندرية واستولى على كثير من مراكب

(١) مدينة بأرمينية الاولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الابواب

الأسطول وسير عمر وعبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى أفريقية وهى السواحل الشمالية للقارة من طرابلس إلى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التى كانت تابعة للروم وانتهى أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار

وفى عهد إمارة عبد الله بن سعد بلغه مجىء ملك الروم بأسطول عظيم فيه ستمائة مركب فسار إليه ابن سعد بأسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت فى البحر بأسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصوارى وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم ففى عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبد الله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التى كان يشن الروم عليها الإغارة من وقت لآخر .

المحاضرة السابعة والعشرون

الأحوال الداخلية والفتن

الأحوال الداخلية

لابد أن نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين فى الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث

روى الطبرى عن الحسن البصرى قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إنى سننت الإسلام سنّ البعير يبدأ فيكون جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد بزل ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أو يتهافتوا إلى النار - فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا فى البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع

من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام فكان مغموما فى الناس وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم فكان ذلك أوّل وهن دخل على الإسلام وأوّل فتنة كانت فى العامة وقال الشعبى لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد فإنّ الرجل ليستأذنه فى الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألاترى الدنيا ولاتراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر . وروى الطبرى بسنده قال لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار وانقطع إليهم الناس.

وكانت قريش بحسب القاعدة التى كانت متبعة كأعضاء الأسرة التى لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر فكان نظر عمر والحال ماذكرنا دقيقاً فى الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة.

من الضرورى أن نشرح حال المسلمين فى عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التى جنى المسلمون مرها أحقاباً طويلة وهم إلى الآن فى آلام شديدة من جرائها.

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لايعرفون الاختلاف بينهم إذأن دواعى الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لاتوجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذى لا ينبغى أن يتجاوزوه. كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلا إلى نزاع أو شر إلى ماوقر فى أنفسهم من الألفة الإسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلامعنى للشقاق بين الرعية وظل العدل وارف فوق رءوسها.

ولى عثمان سعد بن أبى وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لأجل ولما حلّ الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية

على استخراج المال واستحان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا : يلوم هؤلاء سعدا ويلوم هؤلاء عبد الله بن مسعود .

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدا عن إمارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محببا إلى الناس ورفيقا بهم : حدث فى زمنه أن شبابا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدى ومورع بن أبى مورع الأسدى وشبيل بن أبى الأزدى فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائى وكان أبو زبيد نصرانيا ثم أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم فى الوليد يعاقر أبازبيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استترعنا بشىء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه فى ذلك وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موتورين بما أجبت أى شىء استتر به إنما يقال هذا للغريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب . ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب إلى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر فقال عثمان مايقىء الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وأفتى علىّ بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولى على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله إنى قد بعثت اليكم وأنا كاره ولكنى لم أجد بدا إذ أمرت أن أأتمر ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها والله لأضربن وجهها أو تعيينى وإنى لرائد نفسى اليوم ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وطلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والمقدمة

والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها . فكتب إليه عثمان (أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعا بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد إلى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام والقادسية فقال لهم أنتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبئ عن الجسد فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمستمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبسا شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم .

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان فى بعض الأحيان يجلس للناس جلوسا عاما ولا يحجب عن مجلسه بأحد فبينما هو ذات يوم فى مجلس العامة وهم يتحدثون إذ قال قائل ما أجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادا والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشا رغدا فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا المطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تتمنى له سوادا ثم ثار إليه جماعة من سفهائهم فيهم الأشتر النخعى وعمير بن ضابىء ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما فى مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولا هم لهم إلا الوقيعة فى سعيد ومن ولاه فكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج هؤلاء النفر من الكوفة فأمر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرمهم ثم قال لهم ذات يوم إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفا وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشا وأن قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم وإن أئمتكم اليوم يصبرون

لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم فردوا عليه رداً دل على تمكن الفتنة فى رؤسهم فرد عليهم معاوية رداً شديداً وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم فى الكوفة مه إن هذه ليست بأرض الكوفة والله إن رأى أهل الشام ماتصنعون وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمرى إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضا وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود بقاءهم فى الشام فأمره عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد فأدبهم عبد الرحمن تأديبا شديداً حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم فى الوقيعة بعثمان وعماله وهؤلاء هم رؤس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعى وكميل بن زياد النخعى وزيد بن صوحان العبدى وجنوب بن زهير الغامدى وجندب بن كعب الأزدى وعروة بن الجعد وعمر بن الحمق الخزاعى . وفى آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليبلغه أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لا يدخلها علينا واليا أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الأشعرى حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء . وقوة الطاعة لم يبق لها فى نفوس القوم من أثر .

وفى البصرة التى هى الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففى سنة ٢٩ هاج أهلها على أبى موسى الأشعرى عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له فى أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين ولثلاث سنين من إمارته بلغه أن فى عبد القيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة وكان حكيم رجلا لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى فى أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب مايشاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشداً فكان لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلقى إلى الناس فى السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل

يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم إلى ما يماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ماهو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته فبلغ شيء من خبره عبدالله بن عامر فأحضره وسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك فقال ما يبلغنى ذلك فاخرج عنى فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى مصر وهناك وجد مهده بعد أن نفث ما نفث بالعراق

أما الأمر فى مصر فقد كان أشد مما فى العراق فإن ابن سبأ لما جاءها ألقى إلى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبى ولكل نبى وصى وكان على وصى محمد ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصيه وتناول أمر الأمة ثم قال بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أميركم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هـــذا الأمر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنا لنى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا : يا أمير المؤمنين يأتيك عن الناس الذى يأتينا . فقال لا والله ما جاءنى إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث إلى الأمصار من يستقى أخبارها ويعلم علم ما فيها فندب لذلك رجالا سيرهم إلى الأمصار فسير محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر وفرق رجالا سواهم فى البلاد الأخرى فأقبل جميعهم : إلا عمارا ، فقالوا

أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، أما عمار فقد ورد إلى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبى سرح أمير مصر يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه منهم عبدالله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان : محمد بن أبى حذيفة. وكان الذى دعاه إلى ذلك أنه كان يتيما فى حجر عثمان ، فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولى فقال يا بنى لو كنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لى فلأخرج فلأطلب مايقوتنى قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية . والثانى : محمد بن أبى بكر وقد كان من الإسلام بالمحل الذى هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا إلى هذا فصار كما يقول سالم بن عبدالله بن عمر مذمما بعد أن كان محمداً وإنما مال إليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقداً على عثمان ، فقد قال سعيد بن المسيب إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب كلام ؛ فضربهما عثمان وكان قذفا .

أما الحال فى الشام ، فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط إلا أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون فى التشنيع على عثمان وعماله وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أباذر ؛ فقال : يا أباذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله ألا إن كل شىء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال فلا تقله قال فإنى لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت أظنك يهوديا ، ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتى به معاوية فقال هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل يقول يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء مايلقون من الناس فكتب

معاوية إلى عثمان بذلك ؛ فأمره عثمان أن يجهز اليه أبا ذر ، فأرسله اليه فلما قدم عليه ورأى المجالس فى أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال يا أبا ذر مالأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال يا أبا ذر على أن أقضى ماعلىّ وآخذ ماعلى الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد وكان هذا الرأى الاشتراكى متمكنا من أبى ذر وقد وجد الخليفة أنه رأى قائل فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الربذة فيقيم بها ويقال إن أبا ذر هو الذى طلب منه ذلك فسيره وأجرى عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفى أبوذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين إلى الإسلام . أما الحال فى المدينة فقد كانت تلك الكتب التى يرسلها السبئيون سببا لكثرة الحديث فى عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر .

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا عليه عبدالله بن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيد ابن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ماهذه الشكاية وماهذه الإذاعة إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء لا والله ماصدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شىء وماهى إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها قال فأشيروا علىّ فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع فى السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به فى مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خير من أن تدعهم وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوما لا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما قال فما الرأى قال حسن الأدب قال فما ترى ياعمرو قال أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين ، إن الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرا واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين . فترون

أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا هم لهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض فى أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما أشرتم به على قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه إن هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذى يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة إلا فى حدود الله التى لا يستطيع أحد أن يبادئ بعيب أحدها فإن سده شىء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لأحد على حجة حق وقد علم الله أنى لم آل الناس ولا نفسى ووالله إن رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها. ثم رد الأمراء إلى أعمالهم ولم يأمر بشىء مما أشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه إلى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء وإن كان فيه قطع خيط عنقى فعرض عليه أن يرسل له جنداً يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر على جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة .

كان التصميم الذى دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيداً بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبى موسى الأشعرى وأقره عثمان ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة ؛ لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير فى الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما أولئك القادمون أخبروهما بما يريدون فقالوا إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبى قتلناه ، فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر . فضحك ؛ ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفراً إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم ألا إنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين أوكذلك هو قالوا نعم .

وقالوا حميت حمى وإنى والله ماحميت حمى قبلى والله ماحموا شيئاً لأحد ماحموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحدا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولا راغية وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى أكذلك هو قالوا اللهم نعم

وقالوا كان القرآن كتبا فتركتها إلا واحداً ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو قالوا نعم .

وقالوا إنى قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده أكذلك هو قالوا نعم .

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى حدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة ، قال : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم .

وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ماأفاء الله عليه وإنى إنما نفلته خمس ماأفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو قالوا نعم . وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم فأما حبى فإنه لم يمل معهم على أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ماقالوا وإنى والله ماحملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وماقدم إلا الأخماس ولا يحل لى منها شىء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا يتفلت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى .

وقالوا أعطيت الأرض رجالا وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ماحوى الله له فنظرت فى الذى يديهم مما أفاء الله عليهم فبعثه لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى. وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف وأعطى بنى عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب وكانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف.

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم فكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ماعزموا عليه فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمائة والألف وأميرهم جميعا الغافقى بن حريب العكى ولم يجترؤا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء. وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدى وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأن ضياعه كانت ببلدهم وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبى بكر وهو ربيب علىّ وابن أبى حذيفة بينهم، ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذى المروة واتفقوا جميعا أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما عليا وطلحة والزبير وقالا إنما نأتم هذا البيت ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ماجئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا عليا ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن

أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على على وعرضوا له بالأمر فرد عليهم رداً شديداً وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم وهى على ثلاث مراحل كى يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير فى نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم على فكلمهم وقال ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر إخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم على كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا، هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلى إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل، قم معنا إليه قال والله لا أقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال على والله ما كتبت لكم كتابا فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) ثم تركهم على وخرج من المدينة. ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا اكتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمينى بالله لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لا يزال يصلى بهم ثم منعوه من الصلاة فى المسجد وحصروه فى داره، وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن على بن أبى طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد فى تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك مارواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى على وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر أشده) ثم تمثل بهذا البيت:

(فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أُمزق)

وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلى ضلعا فى هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدى عما فى القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة

المسلمين وقد أدت الحال إلى أن ترك على المدينة رأساً ؛ فى هذه الفتنة التى نظن أنه لم يكن فى إمكانه قمعها إلا أنه كان هناك شىء واحد فى هذا الوقت الحرج وهو تناسى كل ما فى النفوس لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ، ولا يغيب عن الفكر أن رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تماماً لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذى أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الأمر وفعلوا مافعلوا ، لوكان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التى فرقت كلمة المسلمين .

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه إليه شىء إلا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ، ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شددوا عليه الحصار لما بلغهم أن جنداً من الأمصار أقبلت لنصر عثمان ، وفى أثناء الحصار ولى عبدالله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتاباً مطولا يقرؤه على المسلمين فى الموسم ويعلمهم بما هو فيه ، فسار ابن عباس أميراً على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت .

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفا من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لايغنون شيئا . دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبى بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافقى بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فأطعن أصابع يدها ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا مافى البيت وأخرجوا من فيه ثم أتوا بيت المال فانتهبوه ، وأذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوما ، وكان قتله لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم .

المحاضرة الثامنة والعشرون

أسباب مقتل عثمان - بيت عثمان - على وكيف انتخب - ترجمته - أول خطبة له - أول أعماله -

إجمال الأسباب التى أدت إلى قتل عثمان

بعد ان أتينا على تفصيل الحوادث التى أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث .

السبب الأول

مهما كان رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبيلا للفتن والثورات وإذا انصدع شمل القلوب وحلت الكرامة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبى الاضطراب وعلى هذا كان الحال فى المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فإن من يتصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة فى حق عثمان سواء فى وجهه وفى غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه حتى كانوا يلقبونه فى بعض الأحيان نعثلا ونعثل رجل مصرى كان طويل اللحية شبهوه به للغض منه ويقول فى لسان العرب إنهم لم يجدوا فيه عيبا سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التى كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهى عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات فى حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التى أدّت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ماتحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصا إذا صادفت مهيجين مثيرين .

السبب الثانى

كان عثمان معروفاً بخلق الحياء واللين أما الحياء فقد كان مشهوراً به فى جاهليته وفى إسلامه حتى قال فى حقه عليه السلام (ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الإغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فإن الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك

من استقرأ خطبه وكتبه حتى إن خطبته التى قالها على المنبر لأول مرة لم تخل من هذا دعاه الخلق الأول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى فى حق نفسه فلا يوجه إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبداً فى سياسة الرعية بل لابد لمقام الخلافة من هيبة فى القلوب تقف بالناس عند الحد اللائق بهم . انظروا إلى مافعله عمر مع سعد بن أبى وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلا بمركزه فإنه خفقه بالدرة وقال جئت لاتهاب سلطان الله فى أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفاً أوذلة ، والخلق الثانى جعله يمتنع عن عمل أى تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعوا إليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الأحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال فى ذلك واحدة فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحاً باب الفتنة الذى يخيفه ، ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التى تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فمازادهم ذلك إلا فساداً لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقنعهم الحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه فكلما أعجزهم باب عدلوا إلى غيره .

السبب الثالث

ماخالف به عثمان صاحبه عمر فى أعلام قريش فإن عمر كان يحجر عليهم فى المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا لهم مما حببه إليهم ولكن ترتب عليه ما حذره عمر فإنه قد اجتمع إليهم أناس ممن لا سابقة لهم فى الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم حتى إذا كان الأمر لهم فى يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فنبه بذلك ذكرهم وإلا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون عليا . صحيح أن عليا لم يجئ مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحما وهو محمد بن أبى بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها على بعد موت أبى بكر وكان محمد فى حجرها فرباه على فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أو لمن هو منهم بسبيل حتى

يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه ؛ لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التى سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقى مع المتآمرين والذى يؤخذ عليهم هو هوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الأقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات .

السبب الرابع

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون وهم فى هذه الأحوال لا يصبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلما ويسرون إن كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عربا يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر لجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التى يألفونها وهى نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام فى تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسوبهم على بن أبى طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبى وصى وأنه من اللازم أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحا لعلى بن أبى طالب حتى علا به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله فى القلوب خصوصا إذا كان قد سبقه شىء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى فى نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن فى أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤيدونه لأغراض فى أنفسهم اشتغلوا فى الأمر بمهارة فصارت شيعتهم فى كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم على العامة علنا فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التى تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقا به من عمر حياته كلها إلا أفراداً قلائل منهم

معاوية بن أبي سفيان فقد كان واليا من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها وكانوا يعيبون عبدالله بن سعد بن أبي سرح لا لأنه ظالم أو جائر وإنما لأمر آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان إذا عفا فإنما جر على الذنب ستر الا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو واليه وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيطة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الأمة.

وإذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك.

من الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين: ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلا أن المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض. ولو نظرنا إلى المسئلة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيئ القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبيين الصواب له لخطئه. وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان. فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية.

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح، وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها

شديداً . وهم فى كل زمن كثيرون . فما ظنك إن كان سراتها ممن يساعد على فتح باب السر بإغضائه وتهاونه إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما ، وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير .

دفن عثمان

من غريب مافعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن إلا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل ، وصلى عليه جبير بن مطعم .

بيت عثمان

١ : ٢ - تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت ولداً اسمه عبد الله ؛ فماتت ، ثم تزوج بعدها أم كلثوم أختها .

٣ - وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس غيلان وولدت له عبدالله الأصغر فمات

٤ - وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسى فولدت له عمراً وخالداً وأبانا وعمر ومريم

٥ - وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ - وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبدالملك ؛ ومات

٧ - وتزوج رملة بنت شيبة من بنى عبدمناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ - وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم ، وقد توفى وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة .

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمى : على مكة — القاسم بن ربيعة الثقفى : على الطائف — يعلى ابن منية : على صنعاء — عبدالله بن ربيعة : على الجند — عبد الله بن عامر : على البصرة — سعيد بن العاص : على الكوفة — عبدالله بن سعد : على مصر — معاوية ابن أبى سفيان على الشام .

٤ — على بن أبى طالب

كيف انتخب

لم تكن الظروف التى حصل فيها انتخاب على بن أبى طالب مشابهة لما كان عليه

الحال فى انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلا ثم ثابوا إلى الجماعة وأجمع رأيهم على انتخاب أبى بكر وعقب وفاة أبى بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لأنه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته . وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصحاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود فى المخالف . أما عند موت عثمان فلم يكن الأمر كذلك ، فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان ، وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة وليس عددهم بشىء أمام جنود الأمصار التى لم يكن لها اشتراك فى الجريمة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم من كان خارج المدينة ، ومنهم المرابطون فى الثغور ، ومنهم العمال ، ومنهم من كان مقيما بالمدينة .

كانت الكلمة العليا فى المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين ؛ الذين قتلوا الخليفة ، ولم يكن فى نظر جمهورهم أليق من علىّ للخلافة فكلموه فى البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك . ويقول الكوفيون أول من بايعه الأشتر ، وكان من المهم عنده أن يبايعوه طلحة والزبير لأنهما زميلاه فى الشورى وأن تطلع إلى الخلافة أحد دونه فهما . روى الطبرى عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقام مالك الأشتر وسل سيفه وقال والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروى أن علياً قال لهما إن أحببتما أن تبايعانى وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجىء بسعد بن أبى وقاص ليبايع ، فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك منى بأس قال خلوا سبيله . وجىء بعبدالله بن عمر ليبايع ، فقال لا أبايع ؛ حتى يبايع الناس ، قال : ائتنى بحميل ، قال : لا أرى حميلا ، قال الأشتر : خل عنى أضرب عنقه ، قال علىّ دعوه أنا حميله إنك ما علمت لسيىء الخلق صغيراً وكبيراً ، وتخلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد ابن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب ابن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان ، وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليا ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبدالله بن سلام والمغيرة بن شعبة

وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة إلا من فر ولحق بالشام .

ترجمة على

هو على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان على مراهقا وكان مقيما مع الرسول فى بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وكان له الشرف العظيم ببياته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجراً حتى لايرتاب المترصدون فى وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التى أمر أن يسلمها لأهلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بنته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ماعدا غزوة تبوك فإن الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الأثر المحمود والمقام الذى لايجهل فى جميع الغزوات وكان شجاعا يخوض الغمرات ولا يبالى بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان على يرى فى نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لايعدلون به غيره لماله من شرف القربى والصهر ولكن المسلمين رضوا أبا بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضى به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالأمر من عمر كما كان أحق من أبى بكر وكان فى عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً فى الأحكام الشرعية ولما عهد عمر إلى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلى عثمان فرضى وبايع ولم تكن علاقته بعثمان فى آخر حياته حسنة الظاهر حتى إن اسمه استعمل للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلا إن لم تقم معنا فلم كتبت الينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك : ولما انتهى أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو مافصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال .

أول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عزوجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم

إلى الجنة إن الله حرم حرما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباده فى عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض .

ولما أراد على الذهاب إلى بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها إليك واحذرن أبا حسن ＊ إنا نمر الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن ＊ بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن ＊ حتى يمرن على غير عنن

فقال على وذكر ما كان .

إنى عجزت عجزة لا أعتذر ＊ سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلى ما كنت أجر ＊ وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبنى العجول المنتصر ＊ أو يتركونى والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم إنى لست أجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون قالوا لا قال فلا والله فلا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا - واشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج وإنما هيجه على ذلك هرب بنى أمية وتفرق القوم وبعضهم يقول والله إن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا

إلى ماقال على أمثل وبعضهم يقول نقضى الذى علينا ولا نؤخره والله إن علياً لمستغن برأيه وأمره عناد لانراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره.

أول أعمال على

رأى على أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانيا فأبى ذلك إباء تاما كأنه قد وقر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لان يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوما كاملا نقص فى دينه ولو كان الأمر قد استتب وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم فهو حر فى اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع أنه قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله.

فرق العمال على الأمصار فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة وعمارة بن شهاب إلى الكوفة وعبيد بن عباس إلى اليمن وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر وسهل بن حنيف إلى الشام فأما سهل فإنه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام فقالوا إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع قال أوما سمعتم بالذى كان. قالوا بلى فرجع إلى على.

وأما قيس بن سعد فإنه سار حتى أتى مصر فافترق عليه أهلها فرقا فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتى وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع على مالم يقد إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة.

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتى البصرة وكان أهلها فرقا كأهل مصر وأما عمارة فانه سار حتى إذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدى وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيدة الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى كل شىء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال.

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل فى جميع الأمصار الكبرى الإسلامية.

فنى الشام كان الأمير معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية . كان أمير أعلى الشام فى عهد عمر وعثمان وكان محبوبا من أهله فلما وقع إليهم مقتل عثمان واستخلاف على لم يرض أن يدخل فى بيعة لأسباب (١) أنه يتهم عليا بشىء من أمر عثمان (٢) أنه آوى قتلته فى جيشه (٣) أنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن عليا يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة ثم ليس من السهل أن يدخل مختاراً فى بيعة نتيجتها إذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للإمارة عليهم ولم ير لعلىّ بيعة توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً .

أرسل علىّ إلى معاوية سبرة الجهنى يطلب إليه أن يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية إليه بشىء ولم يجبه حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بنى عبس فدفع إليه طوماراً مختوما عنوانه :

من معاوية إلى على

وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسى المدينة فى غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل إلى على فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ما وراءك قال إنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال على منى يطلبون دم عثمان ألست موتورا كترة عثمان اللهم إنى أبرأ اليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ومن الغريب أن عليا لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل إنى أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل إلا بشق الأنفس .

أحب الناس أن يعلموا رأى على فى معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه فى قتال أهل القبلة أيجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن على دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فدسوا اليه زياد بن حنظلة التميمى فجلس اليه ساعة ثم قال له علىّ يا زياد

تيسر فقال لأى شىء قال تغزو الشام فقال زياد الأناة والرفق أمهل :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا على ابنه محمدا فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف على المدينة قثم بن عباس وأقبل على التهيؤ والتجهز . وبينما هو على ذلك إذ جاءه ماهو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وإنهم توجهوا إلى البصرة ، وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبتعد عن المدينة فى هذه الأوقات وقد علمت وهى بمكة أن عثمان قتل وإنه قد بويع لعلى بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا نصها (إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا وبادروا بالعدوان ونبا قولهم عن فعالهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء) .

كان بمكة فى ذلك الوقت عبدالله بن الحضرمى عاملها لعثمان وعبدالله بن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك فى دمه ثم ساروا فى وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بنى أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل على انتدب رجلين هما عمران ابن حصين وأبو الأسود الدؤلى ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على

عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما : إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ومافيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا وقرأت ﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا أننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره ؛ ثم سأل طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع علياً قال بلى واللج على عنقى وما أستقيل علياً إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأى واحد فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه فى ميسرة المربد ووقف الآخرون فى ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس فى معنى ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل وفى غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا إلى أن زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد بايعا كرها فالأمر أمرهما وإلا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو كعب بن سور قاضى البصرة فسار حتى أتى المدينة

يوم جمعة فدخل المسجد ونادى ياأهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة على أم أتيا طائعين فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهين فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب ابن سنان وأبو أيوب الأنصارى فى عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة وأخذ بيده صهيب إلى داره وقال أماوسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب إلى البصرة . وكان على لما علم بخبر كعب كتب إلى عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل وإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب إلى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلى لهم الأمر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد إلى على وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل فى نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن له شركة فى دم عثمان ثم نادى منادى الزبير وطلحة بالبصرة ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجىء بهم أذلاء فقتلوا ، ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا بأخبارهم إلى أهل الشام وإلى أهل الكوفة يطلبون إليهم أن يقوموا بمثل ماقاموا هم به . واستمروا منتظرين ماتأتيهم به الأقدار .

روى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثى قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة ، وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره ، فقلت يا أبا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك إلى زورك ألا كرهت شيئاً فاجلس ؛ فقال يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا ، صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً ، إنه إن كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه ، قلت : فرد محمد بن طلحة : فإن لك ضيعة وعيالا فإن يك شىء يخلفك فقال ما أحب أن أرى أحداً يخلف فى هذا الأمر فأمنعه فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفه فى عياله وضيعته قال ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره .

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجمـل – صفين

أمر علي

لما بلغ علياً مسير من سار إلى البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة ، فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطلب إليهم أن ينفروا إلى معاونته على المخالفين له ، ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس إلى أميرهم أبي موسى يستشيرونه فى الأمر فقام فيهم خطيباً ، وكان آخر خطبته أما إذا كان ما كان ، فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جرائيم العرب ، فأغمدوا السيوف ، وأنصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة فتكلمت رسل علىّ وأغلظت لأبى موسى القول ولما كان الحسن بن على ممن أرسل فى هذه الوفادة قال لأهل الكوفة : يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يتيه أولوا النهى أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به ، فسامح الناس وأجابوا ورضوا به ، وقال لهم الحسن إنى غاد فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ومن شاء فليخرج فى الماء فقفز من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذى قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدأوا بظلم ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله . ثم إن علياً اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أى أمة ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ، قالت أى بنى إصلاح بين الناس . فطلب أن يحضر طلحة والزبير ، حتى يعرف رأيهما ، فلما جاءا أخبر أن مقصدهما كمقصد عائشة ، فقال لهما القعقاع : ما هذا الإصلاح ؟ قالا قتلة عثمان فإنّ هذا إن ترك

كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة عنكم اليوم قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم طلبتم ذاك الذى قلت (حرقوص ابن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم قربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر بعثه الله فى هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل. فقال له القوم أحسنت وأصبت فإن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى على فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح. ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء فى شىء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم. فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا فقال لهم ابن السوداء إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدآ من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون. ولما وصل على إلى البصرة بعث إلى القوم إن كنتم على مافارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا ننزل وننظر فى هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل. قام السبئيون فى الغلس ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ماهذا قالوا

أطرقنا أهل الكوفة ليلا فقال قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل على عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلا قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ماجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاؤا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال على قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان فى ذلك الوقت بدأ من القتال وكانت عائشة فى هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول مارآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعا دينيا وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لاتصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لاتسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل إنسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمى فيه من النبل فجاء محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر فقطعا غرضة الرحل واحتملا الهودج فنجياه من القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة ؛ وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو ابن جرموز فأتبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله فقتله .

قتل فى هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبد الله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب .

وبعد أن انتهت الموقعة مر على بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة فى البيت الذى نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها إنه والله ماكان بينى وبين على فى القديم إلا

ما يكون بين المرأة وأحمائها وأنه عندى على معتبتى من الأخيار وقال علىّ أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بينى وبينها إلا ذلك وأنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها علىّ أميالا وسرّح بنيه معها يوماً .

بعد انتهاء الموقعة أخذ علىّ بيعة أهل البصرة وأمّر عليها عبدالله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان .

هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيماً مهيباً لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام فى إقامته أو اتهم بالموادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولا للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحدود لكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان حقيقة أن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقه من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وأن من الخطأ العظيم أن يستعين على بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الاتفاق إنما يقع على رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق

المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظا لأنفسهم على أن مجرد وجودهم فى جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه فى الدم المسفوك وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاما وهو عندنا الصادق فى قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفى لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة وليس يكفى الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليه إلى حظيرته والكى لا يكون إلا آخر الدواء.

أمر صفين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولا وأفظع أمراً وهو الحرب فى صفين.

انصرف على من البصرة إلى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجلى ليكون رسولا إلى معاوية بن أبى سفيان يطلب إليه البيعة فشخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ما جاء له فماطله واستنظره. وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشىء أو تفنى أرواحهم والشام مجمع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التى لم تزل حافظة لشىء من قوتها فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد. عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسى المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا أطوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة على ويتهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه ولم يعمل أى عمل فى القصاص منهم فجاء جرير عليا وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير على إلا المسير والقتال. خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة. هناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود على ومعاوية فعسكرت الطائفتان فى سهل صفين وتواقفت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض.

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم بشير بن عمرو

الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال : يامعاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك ، وإنى أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها ، فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال إن صاحبى ليس مثلك إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا ؟ قال يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى مايدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك قال معاوية ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال يامعاوية إنى قد فهمت ما رددت : إنه والله لا يخفى علينا ماتغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم الا قولك قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير لئن أخطأت ماترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك ولئن أصبت وماتمنى لاتصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار فاتق الله يامعاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله . ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا ردّ شديد وأمره إياهم بالانصراف ، فأتوا علياً وأخبروه بالخبر . كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً فى الصلح واختلفت بينهما الرسل فى ذلك فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبى وزياد بن خصفة وشبث بن ربعى وهو أحد الرسل فى المرة الأولى وربما كان حمقه سببا فى عدم النجاح لما دخلوا على معاوية بدأ عدى فقال إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المرسلين أفضلها سابقة وأحسنها فى الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذى رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يامعاوية لايصبك الله وأصحابك بيوم الجمل ، فقال معاوية :

كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً هيهات يا عدى كلا والله إنى لابن حرب مايقعقع لى بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات ياعدى قد حلت بالساعد الأشد فقال شبث وزيادة أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ماينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه ـ وقال يزيد بن قيس إنا لم نأت إلا لنبلغك مابعثنا به إليك ولنؤدى عنك ماسمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ماظننا أنا لنا عليك به حجة وإنك راجع به إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يامعاوية ولاتخالف عليا فإنا والله ماراينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه فقال معاوية أمابعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التى دعوتم إليها فمعناهى وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لانراها إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لانرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث أيسرك يامعاوية أنك إن مكنت من عمار تقتله فقال ومايمنعنى من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبث لاتصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق ، وبذلك انتهت هذه السفارة التى لم يكن يظن أن تنتهى إلا بمثل ما انتهت إليه ، لأنه كان من الضرورى أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً فى مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شىء وهذا عن شىء حتى يكون صلحا . أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما فى بعض الداعين من هذه الشدة التى تفسد القلوب وتباعد مابينها وأرسل معاوية إلى على حبيب ابن مسلمة الفهرى وشرحبيل ابن السمط ومعن بن يزيد الأخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال : أما بعد : فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته . فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم ، فقال له : ما أنت لا أم لك

والعزل وهذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال على وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت على أحقره وسواء اذهب فصوب وصعد مابدالك وقال شرحبيل بن السمط إن كلمتك فلعمرى ما كلامى إلا مثل كلام صاحبى قبل فهل عندك جواب غير الذى أجبت به فقال على نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا فى الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لى بايع فأبيت عليهم فقالوا لى بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى إلا اشقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ولا سلف صدق فى الإسلام طليق بن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين فلا غزو إلا خلافكم معه وانقيادكم معه وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً ألا إنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين . فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوما فقال لهما لا أقول إنه قتل مظلوما ولا أنه قتل ظالما قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فنحن منه برآء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول لما انسلخ المحرم أمر على من ينادى ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم إنى قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق وإنى قد نبذت اليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش . وفى غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجها لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفى ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبى .

أصبحت الأمة فى أمر عجب   والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقا غير كذب   إن غداً تهلك أعلام العرب

وفى الصباح زحف على بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وفى ذلك يوم مشؤم لايزال المسلمون يعدونه شؤما من لدن ذلك الحادث إلى الآن. تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة فى غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الاول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر فى الميسرة وثبتت ربيعة ومر به فى ذلك الوقت الأشتر النخعى فقال له على ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فلما هب اليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه فأخذ لايعمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع إلا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع الهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر فى هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت فى هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة :

أبت لى عفتى وأبى بلائى   وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

فمنعنى هذا القول من الفرار . وفى هذا اليوم قتل عمار بن ياسر .

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يمده بالرجال لما رأى من ظفره . وبينما هم فى الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رءوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم على يا عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف

بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم أنهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها ومارفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا مايسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله ، وقال مسعر بن فدكى التميمى وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك . ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال ، فأرسل إليه رسولا فقال الأشتر للرسول ليست هذه الساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى ، إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا تعجلنى فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم والله مانراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك ، قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجىء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب إليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق ثم رجع إلى علىّ فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا ، فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الأشعث ومن تابعه وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعرى فقال علىّ قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن وبين لهم تخوفه من أبى موسى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر علىّ للسير على ما رأوا .

المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم — نتائجه — الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وإن كان الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات . فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعرى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص القرشى عملا به وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة ، وإنى قد أوجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وإن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وان رضيا وأحب فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه الحاداً وظلما ، اللهم انا نستنصرك على من ترون ما فى هذه الصحيفة . ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين —

١٥ صفر سنة ٣٧

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور. ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ دينى أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره لأنه ولى عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلما ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من آوى إليه قتلته.

يظهر للمتتبع أخبار ما بين على ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى فى معاوية انحطاطا هائلا عنه ولماذا؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الإسلام إلا كرها حينما لم يجدوا مناصا من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغما لأنه لم يجد له أنصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن فى وقت بايعه الناس فيه بالخلافة وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به إنسان ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ومثله لا ينال إلا بالأناة وشىء من المصانعة والسهولة وهذه أشياء لم ير على أن يتنزل إليها. أما معاوية فإنه بدون ريب كان يرى نفسه عظيما من عظماء قريش لأنه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب وأكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة النسبية ثم كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح فى حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن عليا لا ينظر إليه بتلك العين التى كان ينظر له

بها من قتله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى على يحطه عن تلك المنزلة السامية التى نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وجد أمامه شبهاً تفسح له المجال فى تلك المناوأة (١) أنه لم يستشر فى تلك البيعة وهو سن أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتى ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة على (٣) أن أول من ندبه للخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم - كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى المذلة والمهانة.

شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشىء الذى يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلى كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى إن رسله التى كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى بينهم وكلا الأمرين لا يرضى به على أما قتلة عثمان فلأنه إذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلأنه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التى رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية فى نفسه أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذى اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج فى جند على.

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الى دمشق أما جند على فإن الأشعث ابن قيس خرج بكتاب الصلح يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم يقرءونه حتى مر به على طائفة من بنى تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون فى أمر الله الرجال لا حكم إلا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة

خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة.

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى مناديهم إن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا كان رسول علي إلى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو سيد المسلمين وابن عم سيد المسلمين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فبعث إليهم علي عبدالله بن عباس وقال له لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به - أما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة وفي السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في هذا قال ابن عباس فإن الله عز وجل يقول يحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أوتجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين، وقالوا إن هذه الآية بيننا ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حزبه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ثم جاء علي فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك ، ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيي ولما

أبيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براء. قالوا له نخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء فقال إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا نخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة أدخلوا مصركم رحمكم الله. والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون فبايعهم على وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليا كان إماما بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافراً فإذاً يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر فى القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافه. ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصا فاللين معهم ومهادنتهم إدهان فى دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله وهذا فى نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح للخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم فى نظرهم كجند معاوية سواء بسواء: فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هى أيضا باطلة. أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر فى كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شىء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شبها فى نفس إمامة الإمام أهى منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال فى دين الله وإنما هو تحكيم فى صحة وصف ينبنى عليه حكم فإن القاضى الذى ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد فى أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك فى إمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء المطالبة بأمر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا

أيضاً لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له ، فإذا رأى من خصمه إنكاراً أو تمسكا بشبه فإنه لاطريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو محكمين يكون حكمهما قاطعاً لنزاع خصمه ، وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة ، وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار اهلى عدوان والمتتبع لاحوال الخوارج ومقاماتهم فى حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التى لاينكرها إلا غاو فى نظرهم وإلا فكيف يؤول فعلهم ؟كانوا بالأمس يرون فى على أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم فى الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون أنه ضل فى التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة ، وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد .

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين : بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى ومعهم ابن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم وأبوموسى الأشعرى معهم ، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لايدرى بما جاء به ولا بما رجع به ولايسأله أهل الشام عن شىء وإذا جاء رسول على جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه ما كتب إليك أمير المؤمنين فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه إلا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجىء لايعلم بما جاء به ، ويرجع لايعلم بما رجع به ، ولايسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون . وشهد هذه الجماعة عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام المخزومى والمغيرة بن شعبة وغيرهم .

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاءا لأجله وهو إصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما قال أبو موسى أشهد - قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه - قال بلى - قال عمرو فإن الله يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) فما يمنعك من معاوية ولى عثمان يا أبا موسى وبيته فى قريش كما قد علمت فإن تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة فإن

لك بذلك حجة تقول إنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ماذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبى طالب وأما قولك إن معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ماوليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله عز وجل ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه مخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى فى كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال إن هذا قال ماقد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فإنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنازعا . ويروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على ومعاوية وإن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وأن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لأن الذى ثبته إنما هو حكمه والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا مارضى به أحد الحكمين ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية .

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدى

إلى نتيجة لأن أباموسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل إلى مايريد من أى طريق يسلكه وقرينه يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمه إلا أن يصل إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان. قال المغيرة ابن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال ياأبا عبد الله أخبرنى عما أسألك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فإنا قد شككنا فى الأمر الذى قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة فقال عمرو أراكم يامعشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمروا فقال له أراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة إلى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد.

لم يكن على ليرضى بهذا الحكم الذى تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما ورضى به معاوية طبعا لأن أقل مافى الحكم أن ليس لعلى وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدا فزادت آماله فى أن يكون خليفة المسلمين.

رأى على أنه لابد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فإنه لما أراد أن يبعث أباموسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا يظنون أن عليا وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له إن الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس فى صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحى المسجد يقولون لا حكم إلا لله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال فى آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبدالله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان وكتب ابن وهب

للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة على إليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيى لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن .

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ✿ فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى ✿ مكان الهدى أو أننى غير مهتد

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ✿ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين . وكتب إلى الخوارج يدعوهم إلى المجىء لحرب أهل الشام فكتبوا اليه (أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس يأمره أن يرسل اليه جند البصرة والى أمير المدائن يأمره أن يرسل اليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندى هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام فقام فيهم خطيبا وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا الى ما أحببت . بلغ عليا وهو فى مقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا سر بنا الى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم صرنا إلى عدونا من أهل الشام فلم يجد بدا من موافقتهم ونادى

بالرحيل فلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم فبعثوا إليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التى نطق بها وهم يسمعون فرفع راية مع أبى أيوب الأنصارى ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن إنه لاحاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج إلى على جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت فى ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلى الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا هناك أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه فى المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذى ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط : وهو فى كل يوم يلقى عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئا وصار فى جند لا يمر ولا يحلى ضعف سلطان أمامهم فى أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التى كادت تستأصلهم .

هذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم . أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفى هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائما فى علو إلى ما كان يستعين به من الحيل .

كان مما يهم معاوية أن يستولى على مصر فإنها متاخمة له وهى مورد رزق عظيم

للجنود فأعمل لذلك الرأى ونجح . كان محمد بن أبى حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الأمر لعلى ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته فى بدء سنة ٣٦ وكان رجلا سياسياً خبيراً بالأمور فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الأنصارى فبعث اليهم قيس إنى لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم ، كان أثقل شىء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه على بأهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتابا لا يستبين مراده منه إلا أنه قال له أنا كاف عنك وان يأتيك من قبلى شىء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتابا آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتابا جعله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة فى إخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لناشيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل بأخوانكم الذين عنده بخربتى يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه فى شىء وكانت لعلى جواسيس بالشام فبعثوا إليه الخبر فاتهم قيسا وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى على إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ولو أنى غزوتهم كانوا لى قرنا وهم أسود العرب فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم - فأبى على إلا قتالهم . أبى قيس أن يقاتلهم وكتب اليه إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك وابعث اليه غيرى فعزله وولى على مصر محمد بن أبى بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول فى طاعته أو الخروج من مصر فبعثوا إليه إنا لا تفعل دعنا حتى ننظر إلى ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما اتاهم خبر معاوية ومن معه من أهل الشام

لعلى وأن عليا ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبى بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل لهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك عليا قال ما لمصر إلا أحد رجلين صاحبنا الذى عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الأشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب إليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب فى العالم. والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان.

لم يصل الأشتر إلى مصر بل مات بالقلزم ويقال إنه سم فى شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب على إلى محمد بن أبى بكر (أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً منى لك فى الجد ولو نزعت ماتحت يدك من سلطانك لوليتك ماهو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب اليك ولاية منه، ان الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحا، وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب، اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ماولاك أعاننا الله وإياك على مالا ينال الا برحمته).

كان معاوية فى ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب إلى مسلمة ابن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبا اليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبى بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز الى مصر عمرو بن العاص فى ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أدانى أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب الى ابن أبى بكر (أما بعد: فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر فإنى لاأحب أن يصيبك منى ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنى لك من الناصحين) فكتب محمد الى على يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً.

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج اليه محمدا فى ألفى رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل، وفر

الباقون واختفى محمد بن أبى بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك أما على فلم ينجح فى إخراج الجنود لإغاثة مصر إلا بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلا حتى بلغ عليا ما كان فأرسل إليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبى بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف على ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلى فكتب إلى على يستمده فأمر الناس أن ينهضوا اليه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضب فى جحره والضبع فى وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم أوخيب لا أحرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا اليه راجعون ماذا منيت بكم عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون إنا لله وإنا اليه راجعون .

ووجه معاوية بن أبى سفيان ابن عوف فى ستة آلاف للاغارة على هيت والأنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحدا ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية فخرج على فى طلبهم فلم يلحقهم

ووجه عبد الله بن مسعدة إلى تيماء ، وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادى وأن يقتل من امتنع ثم يأتى مكة والمدينة فوجه له على جيشا يقدمه المسيب بن نجية الفزارى فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديدا وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش .

ووجه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادى البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة فى ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب إلى اليمن وكان واليها عبيد الله ابن عباس لعلى فلما علم بمسير بسر إليه فر إلى الكوفة حتى أتى عليا واستخلف على صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله وكان بسر عسوفا أسرف فى قتل من رآه من شيعة على .

هكذا كانت الحال فى تلك الأزمنة الثقيلة التى كانت إلى الفوضى أقرب .

ومن أغرب مايروى أن ابن عباس وهو الساعد الأشد لعلى فارقه وترك البصرة التى كان قد ولاه عليها وجاء مكة لأن عليا اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين

المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل على — بيت على — صفته وأخلاقه — الحسن بن على — مدنية الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة — القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور — النقود — الحج — الصلاة — العلم والتعليم

مقتل على

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبدالرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا مانصنع بالبقاء بعدهم شيئا إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لايخافون فى الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم على بن أبى طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لاينكص رجل مناعن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل على صاحبه الذى توجه إليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذى فيه صاحبه : فأما ابن ملجم المرادى وكان عداده فى كندة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئا كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم على يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل على أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفى لى قال ومايشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب قال هو لك مهر أما على فلم أرك ذكرته لى وأنت

تريدينى قالت بل التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنئك العيش معى وإن قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ماجئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهو ينادى الحكم لله لا لك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على على فقالوا له إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده وفى يوم الأحد ١٧ رمضان توفى بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياما قضاها فى هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التى كانت حاضرة خلافته.

أما البرك بن عبد الله فانه قعد لمعاوية فى ذلك اليوم الذى ضرب فيه على فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف فى أليته ودووى من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد. وأما عمرو ابن بكر فجلس لعمرو بن العاص فى تلك الليلة فلم يخرج لأنه كان شاكيا وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشد عليه الخارجى فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرواً وأراد الله خارجة.

بيت على

تزوج علىّ بن أبى طالب.

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى أوّل زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى

(٢) أم البنين بنت حزام من بنى عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان.

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت عبد الله وأبا بكر.

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر.

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهى أم ولد من سبى تغلب فولدت له عمر ورقية (٦) أمامة بنت أبى العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولدت له محمداً الأوسط.

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امرئ القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من أمهات شتى منهن أم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة وأمهاتهن أمهات أولاد شتى وكان النسل من ولده الخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر.

صفة على وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بنى تيم بن كعب والثانى من بنى عدى وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد فى سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبنى عبد مناف ووليها اثنان منهم نغصت على أولهما حياته فى آخره ولم يصف الأمر لثانيهما فى جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بنى عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الأدنون وسادة قريش فى جاهليتهم كما سادوا عليهم فى الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التى لم تجتمع فى غيره؟ لابد لذلك من أسباب: أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر على فإنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق على وما كان من الظروف التى أحاطت به.

كان على ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهى.

الشجاعة ـــ الفقه ـــ الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل. وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من شجاعته بياته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوما يترصدونه حتى إذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر فى نفسه ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفى مكانه يبارز الأقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة

هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه فعمل به الأفاعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بنى عبد مناف ثم بنى هاشم ولم يزل معه إلى أن توفى عليه السلام كل هذا أكسبه قوة فى استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه فى الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم فى بعض الأحيان وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب .

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التى جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة فى الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية فى حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال .

وطوراً كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح فى أشباح النمور ومخالب النسور وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرعاها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء . وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانياً لا يشبه خلقا جسدانياً فصل عن الموكب الإلهى واتصل بالروح الإنسانى فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجلى وسكن به إلى جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير .

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها ويرى بذلك له الحق فى ولاية الأمر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير . وقال فوالله مازلت مدفوعا عن حقى مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا وهناك طبيعة ثابتة فى الناس أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شىء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والأشياخ وروى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما فقال لهما لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيفاً ألا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به أم أى حق أرفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية أربة ولكنكم دعوتمونى إليها وحملتمونى عليها فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن ذلك لم أحكم أنا فيه برأيى ولا وليته هوى منى بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه فلم أحتج اليكما ، قد فرغ الله من قسمه وأمضى حكمه فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر . وأى نفس تصبر على مثل هذا .

لما رفعت قضية عبيدالله بن عمر فى قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان أم خطأ فلما آل الأمر إلى على كان يريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين . كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على

فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن فى العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق . بويع وولاة الأمصار من علية قريش وذوى الرأى والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لأحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم حتى خيل إليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرى فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة أراد فى هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ماسبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم فى أنفسهم أنه لولاهم مابويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم وإلا فعلنا بك مافعلنا بعثمان . ولما ولى ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيدالله بن العباس على اليمن وعبدالله بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فأرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة كان معاوية يتساهل بعض الشىء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء مايجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقير والقطمير فى وقت هو محتاج إليهم حتى كان شىء من ذلك سببا فى تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة . ليس شأن على فى ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما على فكان معظم الأمة عليه فضلا عن أن كثيرا من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بها كالحال فى قيس بن سعد وعبدالله ابن عباس . وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعهدوها مايهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن على

كان من رأى جند على أن يبايعوا الحسن بن على بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الظروف التى هو فيها نظرة صائبة وجد جندا لا يركن اليه وخصما قوى الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم ير خيرا لنفسه

ولا لأمته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ وبذلك تم ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين. وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة.

مدنية الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذى اتبعوه فى أحوالهم الاجتماعية سواء فى إدارة أمورهم الداخلية أو فى حروبهم.

الخلافة

أول ماكان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الإسلامية وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثانى الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملا لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على مافيه صلاحهم متبعا فى ذلك نصوص الكتاب وماعرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ماليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا مالا نص فيه على مافيه نص لما بينهما من التشابه. وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا فى الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا مايسمى فى عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان دينى أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون وإنما هى سلطان أساسه الدين

لم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بنى تيم وعمر من بنى عدى وعثمان وعلى من بنى عبد مناف. وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة

كونها لا تتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى .

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وزادوا فى بيعة عثمان وسنة الشيخين أبى بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة فى بيعة على لأنه أباها لما عرض عليه الأمر عبدالرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور أو أنهم لم يكونوا على درجة واحدة فى ذلك ، وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبدالمطلب وعبدالرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ومن ماثلهم وكان يلحق بهم عبدالله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الأمر فى المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل مابداله وربما استشار بعد ذلك خلصته وكان كثيراً مايرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلا أنه لم يكن أحد يمتنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر ، لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة .

ولم يكن ينقص هذا النظام البديع إلا شىء واحد وهو تعيين من لهم الصوت فى انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم لأن عدم هذا التعيين كان سبباً من أسباب الفرقة بين على ومعاوية لأن علياً كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم فى ذلك أهل الأمصار الأخرى فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لأحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شىء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل لسعد بن أبى وقاص من أحرق باب دار الإمارة الذى حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه .

القضاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعى المأخوذ من الكتاب والسنة. فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون فى الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء. ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هذا العمل إلى من فى مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاء إلا من عهد عمر ابن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم أنموذجا يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين: ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم فى الحكم فلم يعرف عن أحد منهم فى ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء فى نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم فى قضائهم وكان تعيينهم من الخليفة رأساً وأحيانا يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولى فلانا قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة. وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاة ما كتبه على بن أبى طالب إلى أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ولا يشرف نفسه على طمع، ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك).

وكان فى كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة فى كتاب بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءا والثانى جزءا وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضى مسألة

فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عنده غيره وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء فى هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الأقضية فى كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم ، وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم فى الفتاوى والأقضية .

لم يكن القاضى فى أحكامه موكولا إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولا إلى الاجتهاد فى فهم القانون الشرعى وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة أن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً فى القوانين التى يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

الاجتهاد للقاضى والحال ما ذكرنا أمر لابد منه ، ولذلك أعده المتقدمون من الشروط المتحتمة .

لم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أى خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء فى آنات كثيرة فكأن القضاة كانوا نوابا للخلفاء .

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه مادام التنفيذ فى يد القاضى فهو الذى يقضى وهو الذى ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأنا من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين .

ويظهر لنا أن قضاء القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصا أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضا أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود

الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر فى معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة فى ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذى دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام فى مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف ؛ وهذا التوبيخ كان فى نظرهم أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ويرون فى الإحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر رتب لهم الارزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود فى العطاء وقد سوى بينهم على بن أبى طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم .

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظا عظيما فبعد أن كانت العرب تحارب فى جاهليتها بطريقة الكر والفر وهى أن يكر المحارب على خصمه ثم يفر ويكر وهكذا لا يتبعون فى ذلك نظاما رأى قواد الجنود من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون فى الأمام وهى التى تبدأ المناوشات وتتعرف الطريق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى أو جناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم فى الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم ،

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر ابن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص من كتاب له فى ذلك حيث يقول (وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا

يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئا فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الارض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه والغاش عين عليك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية فإذا عاينت العدو فاضم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم اذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك الخ) ،

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقواد وقليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسل إلى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه .

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية أو إيرادات غير ثابتة ، أما الأولى فهى: الخراج والعشر والصدقات والجزية .

والخراج هو ما كان يوضع على الأراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وتركوها فى أيدى أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التى أبقيت فى أيديهم وكانوا يجعلونه أحيانا شيئا مقدراً كما جعل عمر فى السواد وأحيانا يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض أما الأراضى التى أسلم أهلها عليها وهى من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها

المسلمون عنوة وأهلها لا تقبـل منهم الجزية كعبـدة الأوثان من العرب فهذه أرض عشر ومثلها الأراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين ، والعشر : هو عشر مايخرج من الأرض .

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الأرضين التى فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم ومافتحوا فقال عمر فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ماهذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأى ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ماهو إلا ماتقول ولست أرى ذلك والله لا يفتتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكن للذرية والأرامـل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر وقالوا اتقف ماأفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لايزيد على أن يقول هـذا رأى قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأى عمر فأرسل إلى عشرة من الأنصار وخمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هـذا الذى هواى . معكم من الله كتاب ينطق بالحـق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ماأريد به إلا الحق قالوا قل نسمع ياأمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ماغنموا من أموال بين أهل وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم ، أرأيتم هـذه الثغور لابد لهـا من رجال يلزمونها أرأيتم هـذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج فقالوا جميعاً الرأى رأيك فنعما قلت ومارأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ماينفقون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم : فقال قد بان لى الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه إلى أهم ذلك فإن له بصراً وعقلا وتجربة فأرسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشدّ الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح فقال عمر إذاً أترك من بعدكم من المسلمين لاشىء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين .

قال أبو يوسف القاضى والذى رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقا من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لولم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين .

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لاقدرة له على العمل .

روى أبو يوسف القاضى فى كتابه الموسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أى أهل الكتاب أنت فقال يهودى قال فما ألجأك إلى ما أرى قال أسأ الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال أنظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون

وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.
وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لاتزيد عن ٤٨ درهما في السنة ولاتنقص عن اثنى عشر. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار ومايخرج من أرضهم وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابا معينا لاتجب الزكاة فيما دونه وقدرا معينا لايؤخذ فوقه بين ذلك فى كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام فى مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجاراتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر أن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليهم عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المئتين شىء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه.

وروى أبو يوسف القاضى أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب.

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلا من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر عليه راجعا فى سنته فقال أعطى ألفا أخرى فقال له التغلبى كلما مررت بك تأخذ منى ألفا قال نعم فرجع التغلبى إلى عمر فوافاه بمكة وهو فى بيت فاستأذن عليه فقال من أنت قال

رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته فقال عمر (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلا فقال الرجل قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وإني أشهد أني على دين الرجل الذي بعث إليك الكتاب .

قد اتبع المسلمون عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملوني على عشور الأبلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الإنسان قال فقال لي لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة الشرك .

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم .

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة إلى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون في بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة .

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقي يرد إلى بيت المال ليصرف في مصارفه .

النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها إذ ذاك البداوة ولما جاء الإسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما اتسعت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ودرهم وزنه عشرة قراريط

فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهى ٤٢ قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كل منها - ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثقال كنسبة ١٠ - ٧ نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لاإله إلاالله وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها الله أكبر ،

الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم وكان الحج معتبراً فى نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاماً يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان أكثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب حج سنيه كلها لم يتخلف أبداً إلا أنه حصل خلاف فى السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلى أناب عنه كل سنى خلافته لما شغل به من الاضطراب الذى كان بينه وبين معاوية .

كان هذا الاهتمام بأمر الحج جعل له مظهراً عظيماً وفائدة كبرى فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض وأن الخلفاء يجيئهم من الأخبار مالا يمكن أن يكون بواسطة الولاة .

الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو الذى يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه وكان فى كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى به الجمعة ولا ينصب منبر فى غيره فلم تكن تقام إلا جمعة واحدة فى المصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالى. ولم يبلغنا أنه تعددت المنابر فى البلد الواحد فى عهد الخلفاء الراشدين .

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجىء الإسلام نادرة فى الأمة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففى زمن رسول الله صلى الله

عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر فى أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه. ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان أكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة. أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولم يكتب شىء من الكتب فى ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع فى صحف فى عهد أبى بكر وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها إلى الأمصار ليكون كل مصحف إماما لأهل المصر الذى أرسل إليه. أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلم تجمع فى كتاب. وكذلك لم يكتب شىء فى العلوم. أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لاتزال فيها على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضى بالمران على ذلك لا بتعلم سابق.

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية ـ معاوية وترجمته ـ انتخابه

حال الأمة حين انتخابه

الدولة الأموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبدمناف سيداً من سادات قريش فى الجاهلية يعادل فى الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلا تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد والمال وكثرة العصبة كانا فى الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبوسفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الأعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبوالعيص وقد كان

حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذى تحمل الديات فى ماله حينما دعا الناس إلى الصلح فى ذلك اليوم ، رهن لسدادها ولده أباسفيان ، وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلا وأبو سفيان كان صديقاً للعباس بن عبدالمطلب فلم يكن هذان البطنان متعاديين فى الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق فى المسائل التاريخية وإنما كان يظهر فى بعض الأحيان شىء من التنافس الضرورى وجوده فى الأحيان المتقاربة ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف فى الجاهلية الأولى ؛ بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً .

لما جاءت النبوة ؛ ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بنى عبدشمس جمع كما أجابه من بنى هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صدّ عنه كثيراً من أولئك إلا أنّ بنى هاشم وبنى المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته ، وكان يزاحم بنى عبدمناف فى الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصى .

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بنى هاشم إلا أبو لهب . جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الأكبر لقريش فى بدر من بنى عبدشمس بن عبدمناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم فى أحد والأحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبدشمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة وكان أبو سفيان رجلا عظيما فى نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أومذلة ويتبع تلك الصفة غالباً محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول فى ذلك اليوم تأليفا له وتحبباً إليه مالم يعطه أحدا ، وهو أن أمر مناديا ينادى بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فسوّى بين بيته وبين بيت الله ، وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن ، وفى ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها

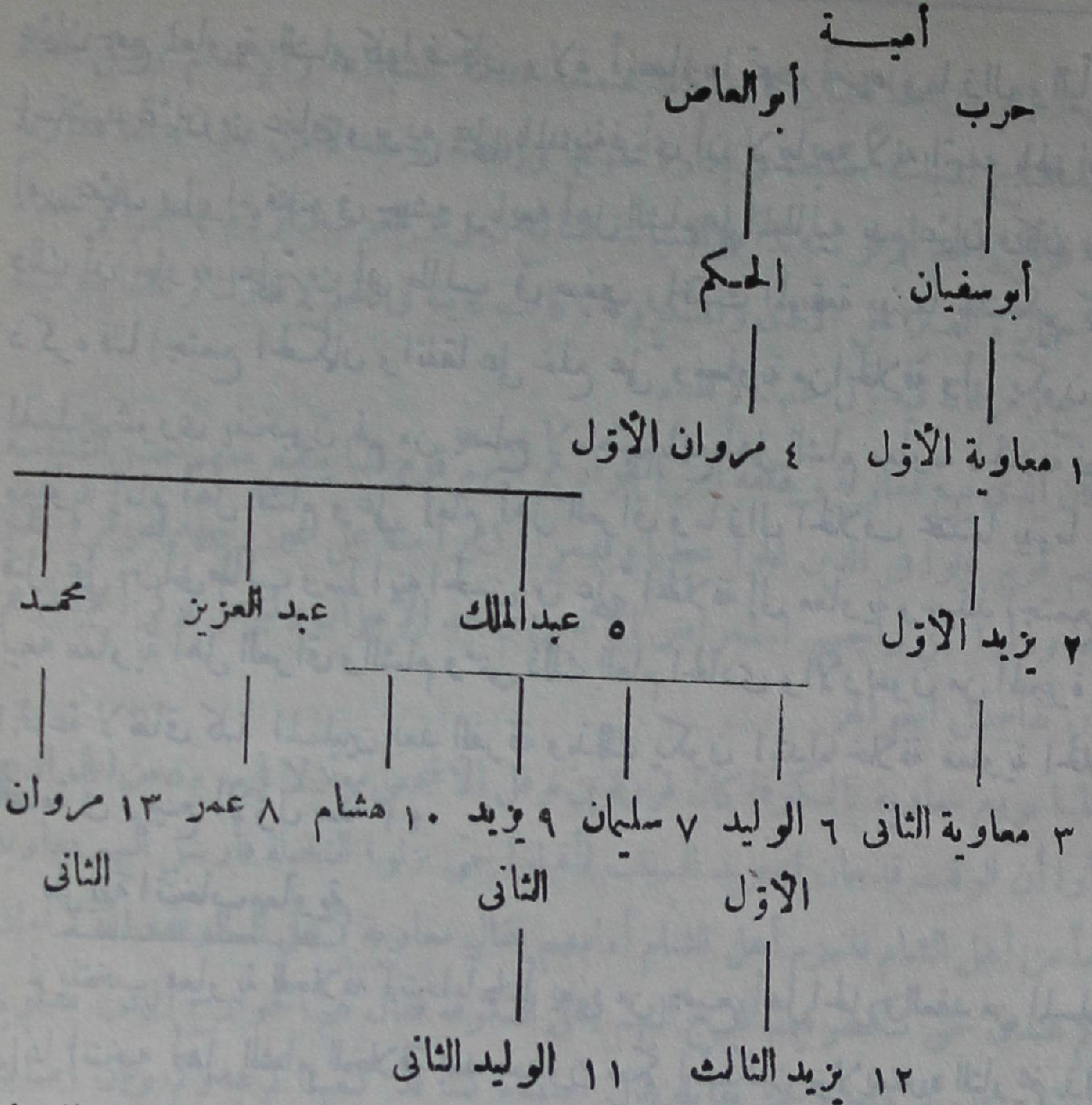
وكانوا يسمون مشيخة الفتح . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الناس بإسلامهم كان يقابلهم قائما فاتحا ذراعيه معانقا لهم كما فعل بصفوان بن أمية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عفوه عنهم سيكون عيبا لاحقا بهم يعيرون به فى مستقبل أيامهم .

وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شابا من بنى عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين فى حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيما وأغنوا غناء حسنا ثم سير بهم إلى ثغور الشام وكانوا كلهم فى شوق إلى وقائع يقضون فيها الواجب الذى عليهم للإسلام حتى يكتب لهم فى نصرته مايمحو ما كتب عليهم فى مغاضبته .

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبى سفيان ، فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الأربعة التى توجهت لفتوح الشام وكان الوالى على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملا على إحدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافا إلى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحس منه بحسن السياسة وقوة التدبير والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفى عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام وبولى على الكور عمالا من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بنى عبد شمس فساسوا الجنود وأرهقوها بالطاعة .

وعلى الجملة فإن بيت عبد شمس انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام وقد قال عليه الصلاة السلام (الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا) فاتصلت له السيادتان .

وفروعه التى كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان : فرع حرب بن أمية ، وفرع أبى العاص ابن أمية . وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ، ومن الثانى عشرة على الشكل الآتى :



فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثانى عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدئ من اليوم الذى بويع فيه معاوية بيعة عامة فى ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهى بمقتل مروان الثانى بن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذى الحجة وهى ٩١ سنة وتسعة أشهر

١ — معاوية بن أبى سفيان

ترجمته

هو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفى يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفى ذلك اليوم دخل فى الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى خلافة أبى بكر ولاه قيادة جيش مدداً لأخيه يزيد بن أبى سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته فى فتح مدن صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وهى سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الأردن: ولما توفى يزيد فى طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق وما معها. وفى عهد

عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة فى أمر عثمان وإيواء قتلته فى جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه علىّ بن أبى طالب فى صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علىّ ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لإمامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية إمام أهل الشام وعلىّ إمام أهل العراق وما زال الخلاف محتدما بينهما حتى قتل علىّ بن أبى طالب وسلم ابنه الحسن بن علىّ الخلافة إلى معاوية وحينئذ اجتمع على بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمى ذلك العام الحادى والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة فى ربيع الأول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعنى من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة. فلما قتل علىّ بن أبى طالب وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه فبايعه فى ربيع الأول سنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق، إلا أنها انتهت فى الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ماعدا الخوارج

حال الأمة عند استلام معاوية الأمر:

تولى معاوية أمر الأمة، وهى أقسام ثلاثة، القسم الأول: شيعة بنى أمية من أهل الشام ومن غيرهم فى سائر الأمصار الإسلامية. القسم الثانى: شيعة علىّ بن أبى طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر. القسم الثالث: الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علىّ لأن كلا قد ألحد على زعمهم فى الدين ومع

مابينهما وهم من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والإقدام ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة فى إدارة شئونها وإفاضة ثوب الأمن عليها . أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة صانع رءوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايته فى الحلم لاتدرك وعصابته فيه لاتنزع ورقاته فيه تزل عنها الأقدام .

كان الذى يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غلوا فى الدين غلواً عظيما وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبهم استعراض الأنفس وأخذ الأموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم .

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعى معتزلا فى ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قدحان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعاً من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لأهل الكوفة والله لا أمان لكم عندى حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لابدّ لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبدالله بن أبى الحوساء الطائى فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبى الحوساء قد خوف بالصلب فقال :

ما إن أبالى إذا أرواحنا قبضت ✡ ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى المجرة والنسران عن قدر ✡ والشمس والقمر السارى بمقدار
وقد علمت وخير القول أنفعه ✡ أنّ السعيد الذى ينجو من النار

فلما قتل ابن الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الأسدى فسار حتى قدم النخيلة فى ١٥٠ وانضم إليه فلّ ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبى حوثرة اكفنى أمر ابنك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره فصمم فقال له يابنىّ أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه فقال ياأبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى إلى ابنى فرجع إلى معاوية فأخبره فقال ياأبا حوثرة عتا هذا جداً ولما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال ياأعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا

سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال يا أبت لك فى غيرى مندوحة ولى فى غيرك مذهب عنك ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذى الجموع حوثره ٭ فمن قليـــل ما تنال المغفره

فحمل عليه رجل من طيء فقتله فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله.

ثم توالت الخوارج حتى أخافوا بلاد العراق فرأى معاوية أنه لابد من تولية العراق رجالا ذوى قدرة وحكمة يأخذون على أيدى السفهاء ويشتدون فى طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأى وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة على وكان والياً له على فارس وقتل على وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً فى استقدامه فأتى المغيرة زياداً وقال له إن معاوية استخفه الوجل حتى بعثنى إليك ولم يكن أحد يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى عنك معاوية فقال زياد أشر على وارم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليه ويقضى الله. وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عودة المغيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل إلى على وبما بقى عنده فصدقه معاوية وقبض منه ما بقى عنده.

وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقه بأبى سفيان لاعتراف كان من أبى سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب إلى زياد فى حياة على يعرض له بولادة أبى سفيان إياه فلما علم بذلك على كتب إلى زياد يقول له (إنى وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلا وقد كانت من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس لاتوجب له ميراثاً ولاتحل له نسبا وأن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل على رأى معاوية أن يستميل زياداً واستصفى مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبى سفيان وإن كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد إلى عائشة أم المؤمنين يقول لها من زياد بن أبى سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت اليه من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجرا فجاء إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له يابنى قل

لأبيك إنى سمعت أنك تريد الحج ولا بد من قدومك إلى المدينة ولاشك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى صلى الله عليه وسلم فإن أذنت لك فأعظم به خزيا مع رسول الله وإن منعتك فأعظم به فضيحة فى الدنيا فترك زياد الحج .

وفى السنة الخامسة والأربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما فى هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته فى حكم البلاد أحببنا إيرادها قال :

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ؛ ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لى قناتكم إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فى واعلموا أن عندى أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم وإياى ودعوى الجاهلية فإنى لا أجد

أحدا عليها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقلما أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لسانى ويدى ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كان بينى وبين أقوام إحن جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته إنى لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس إذا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمراً لكم بعثاً فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذى إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله وأيم الله إن لى فيكم اصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبى الله داود فقال الأحنف لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وإنا لن نثنى حتى نبتلى فقال صدقت : فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى ﴿وإبراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد إنا لن نصل إلى الحق فيك وفى أصحابك حتى نخوض فى الباطل خوضا .

واستعمل على شرطته عبدالله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد

إليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ، ثم يصلى فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر مايرى أن إنسانا يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ؛ فلا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لى بما كان من الأمير فقال أظنك والله صادقا ولكن فى قتلك صلاح الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه . وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشىء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط أربعة آلاف . وقيل له إن السبيل مخوفة فقال لا أعانى شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبنى فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ماوراء ذلك فأحكمه . قال أبو العباس المبرد فى صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة . ووجه يوما بحينة بن كبيش الأعرجى إلى رجل من بنى سعد يرى رأى الخوارج فجاء بحينة فأخذه فقال إنى أريد أن أحدث وضوءا للصلاة فدعنى أدخل إلى منزلى قال ومن لى بخروجك قال الله عز وجل ، فتركه فدخل فأحدث وضوءا ثم خرج فأتى به بحينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عنى فأنكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبى عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولا فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا نفعاً لنفسه ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ماترون . وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذى يمنعكم عن إتيانى إلا الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشونى الآن واسمروا عندى

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج فدعاه فولاه جند يسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته

فى كل سنة مائة ألف ، فكان أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات .

وفى سنة ٥٠ أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فصار والى المصرين وهو أول من جمعا له فسار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ؛ ولا يقولن لا أدرى من جليسى ، ثم أمر بكرسى فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة ؛ يحلفون مامنا حصبك ، فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتى صار إلى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب . وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها .

كان بالكوفة جماعة من شيعة على رأسهم حجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون فى معاوية وعماله ، فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال : أما بعد : فإن غب البغى والغى وخيم إن هؤلاء جموا فأشروا وأمنونى فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا الأداوينكم بدوائكم ولست بشىء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ، ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان . وأرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر أن يجىء ؛ فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ففعل ؛ فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معى وقلوبكم مع حجر الأحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لى براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك ومافيه رضاك ؛ قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق إلى حجر فائتنى به ، فإن أبى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جىء به فلما رآه زياد قال له مرحباً أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براقش ، فقال حجر : ماخلعت طاعة ؛ ولا فارقت جماعة وإنى على بيعتى فأمر به إلى السجن ، ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم ، وعدتهم اثنا عشر رجلا فأودعهم السجن وأحضر شهوداً شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم

الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبى تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه ، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل الكوفة ، فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه إلى معاوية فسير بهم حتى انتهوا إلى مرج عذراً عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة ؛ وهم الذين تبرءوا من علىّ بن أبى طالب .

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفى أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبى سفيان قال حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى ، وحملنى ابن سمية ، فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم يغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثى حجراً وكانت تتشيع :

ترفع أيها القمر المنير ... تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا ... كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بنى عدى ... تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً ... وشيخاً فى دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم ... من الدنيا إلى هلك يصير

وتوفى زياد فى سنة ٥٣ بالطاعون

والمطلع على الطريقة التى حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكم عرفى فإن أخذ الولىّ بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح فى جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذى يقصر على المسئولية على المجرم وإنما ذلك شىء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك فى الغالب وقتية . ومن ذلك وضعه العقوبات التى شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ومن ذلك : عقوبته للمدلج بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لازمة لأهل

العراق وقد أفادت فى إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقل خروج الخوارج فى زمنه ولكنه ضحى فى سبيل الوصول إلى ذلك شيئاً كثيراً والتاريخ إنما يعطى الإنسان صفة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضما لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاة العراق إسرافا فى الدماء، ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال إنه لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقاً بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن إبانه ولا يجمر لهم بعثاً، وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالى وصدقها لا تجد سبباً للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زياداً لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات إلا قليلا لأن علمهم بصدقه فى الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم.

وعلى الجملة، فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن؛ وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة وإذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا إلى الأمراء أو الخلفاء من غير بينة واضحة.

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح فى عهد معاوية بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين. أحب العافية وأحسن فى الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال إن فلانا يرى رأى الشيعة وإن فلانا يرى رأى الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن فى الإقامة الغبن والوكف وأن فى جهاد أهل القبلة الفضل والأجر، وقد فزع الخوارج فى عهده إلى ثلاثة نفر؛ منهم المستورد بن علفة التميمى؛ من تيم الرباب؛ وحيان بن ظبيان؛

السلمى ومعاذ بن جوين بن حصين الطائى فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا فى غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا فى جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون فى منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج فى هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ماحملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ماأردنا من ذلك شيئاً ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب - قال المغيرة بلى قد بلغنى ذلك عنكم قد صدق ذلك عندى جماعتكم. قالوا له أما اجتماعنا فى هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده فى منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد وأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه فى أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام فى أهل الكوفة خطيبا فقال :

(أما بعد : فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى وإنى والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وأيم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر لى أن رجالا منكم يريدون أن يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف وأيم الله لايخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار) فقام إليه معقل بن قيس الرياحى فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد من هؤلاء القوم فإن كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفيناكهم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها فقال ماسمى لى أحد منهم ولكن قد قيل لى إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أصلحك الله فإنى أسير فى قومى وأكفيك ماهم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه . فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكفنى كل امرئ من الرؤساء قومه وإلا فوالذى لا إله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون

إلى ما تنكرون وعما تحبون لى ما تكرهون فلا يلم لائم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يهيج فتنة أو يفارق جماعة .

ولما كان الخوارج قد نزلوا فى إحدى دور عبد القيس قام صعصعة بن صوحان العبدى وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه فى دار العبدى فكره أن يؤخذوا فى عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطابا حسنا قال فى آخره (ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فإياكم أن تؤووهم فى داركم أو تكتموا عليهم فإنه ليس ينبغى لحى من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لى أن بعضهم فى جانب من الحى وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكى لى ذلك حقا تقربت إلى الله بدمائهم فإن دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من فى محبس المغيرة إجماع أهل المصر على نفى من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين فى ذلك :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ	شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة	وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها	إقامتكم للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى	إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح	شديد القصيرى دارعا غير أعزلا
وياليتنى فيكم أعادى عدوكم	فيسقينى كأس المنية أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا	ولما أجرد فى المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد	إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحا بنصل السيف فى حمس الوغى	يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا	وأصبح ذا بث أسيرا مكبلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم	أثرت إذا بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة	شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فتتاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة

فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الجبن وسوء الرأى فمن ترون أبعث اليهم فقام إليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس فقال إنك لاتبعث اليهم أحدا ممن ترى حولك من أشراف المطر إلا وجدته سامعا مطيعا ولهم مفارقا ولهلاكهم محبا ولاأرى أصلحك الله أن تبعث اليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولاأشد عليهم منى فابعثنى اليهم فإنى أكفيكهم بإذن الله فقال اخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيروهم من نقاوة شيعة علىّ وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكرى فى ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى إذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم إنسان ثم إن أبا الرواغ صاح وقال يافرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة فعادوا إلى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا فقالوا لهم الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لانزايلهم حتى يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل إن الله لايستحيي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لاأكثر الله فينا مثلك إنا مالم ندع المعركة فلم نهزم إنا متى عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم فنكن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله إن لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس ردءاً لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدّوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفى أثنائه بلغ الخوارج أن جيشاً من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته فى ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدّوا عليه شدّة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبو الرواغ وبقى معه نحو مائة رجل فعطف عليهم وهو يقول :

إن الفتى كل الفتى من لم يهل إذا الجبان حاد عن وقع الأسل
قد علمت أنى إذا البأس نزل أروع يوم الهيج مقدام بطل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم إلى مكانهم الذى كانوا فيه، ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجىء معقل فتركوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ فى آثارهم. قال المستورد لأصحابه إن الذين مع أبى الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقى بأصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد أن خدعه ولم يكن إلا القليل حتى التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى ياعباد الله الأرض الأرض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة: وبيناهم على تلك الحال إذ طلعت عليهم مقدمة أصحاب الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ماعدا خمسة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح فى صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن أن يماثلهم أحد فى شداتهم المنكرة قال الشعبى ماولينا وال بعد المغيرة مثله وإن كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال.

وأقام المغيرة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهرا وهو من أحسن شىء سيرة وأشده حبا للعافية غير أنه لايدع ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه وكان يقول لاأحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكنى قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بينى وبينهم الموت وسيذكرونى لو قد جربوا العمال بعدى قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدنا خيرهم أحمدهم للبرىء وأغفرهم للمسىء وأقبلهم للعذر. وتوفى المغيرة سنة ٥١ ولووازناه بزياد لرجح عليه لأنه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف.

ومن ولاة العراق الأشدا عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد

اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبو زياد، فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفى الحرب جماعة أخرى، وممن قتل صبراً عروة بن أدية؛ أخو أبى بلال مرداس ابن أدية وكان سبب ذلك أن ابن زياد خرج فى رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن فى الأمم قبلنا، فقد صرن فينا: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ وذكر خصلتين أخريين. فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليه إلا ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب وترك رهانه: فقيل لعروة ماصنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبه ابن زياد فى الكوفة فأخذ بها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف ترى قال أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك فقتله، وأرسل إلى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس فى أربعين رجلا بالأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمى فهزمه الخوارج فقال شاعرهم:

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتى توفى معاوية

وفى مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه، ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتى ذكرهم متى بدأنا فى تاريخ مصر.

أما الحجاز فكان ولاته دائما من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلا من بنى حرب ولاه الطائف فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلا قيل هو فى أبى جاد فإذا ولاه مكة قيل هو فى القرآن فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق، وكان ولاة المدينة فى الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم يحج بنفسه إلا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بنى أمية

الفتوح فى عهد معاوية

لم يكن فى الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتوح قليلة والذى كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبد الله بن سوار العبدى الذى كان أميراً على ثغر السند القيقان[١] مرتين وفى المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه وغزا المهلب بن أبى صفرة الأزدى ثغر السند فأتى بنة ولاهور[٢] وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين. وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان: أحدهما قسطنطين الثانى بن هرقل الثانى الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ إلى سنه ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغاناتس الذى ولى من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل فى زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها فى البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس افتتحها جنادة بن أبى أمية الأزدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم.

وأما فى البر فرتب الشواتى والصوائف والشواتى جمع شاتية وهى الجيش الذى يغزو فى الشتاء والصوائف جمع صائفة وهى الجيش الذى يغزو فى الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو وفى سنة ٤٨ جهز معاوية جيشا عظيما لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم وكان فى هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابى فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم فى بعض الأيام

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان

(٢) مدينة بكابل

واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :

قد عشت فى الدهر أطواراً على طرق — شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تطربنى — ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه — ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه والله هلك فتى العرب فقال ابنى أو ابنك قال ابنك فآجرك الله فقال :

فإن يكن الموت أودى به — وأصبح مخ الكلابى زيرا
فكل فتى شارب كأسه — فإما صغيراً وإما كبيراً

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفنهم . وفى أثناء الحصار توفى أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد وهو الذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريبا من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جنودهم ومراكبهم .

ومن الفتوح العظيمة ما كان فى إفريقية ففى سنة ٥٠ ولى معاوية عقبة بن نافع وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر فى الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها .

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على أفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به وهذا من الخلل القديم الذى يئن منه المسلمون إلى الآن فإن الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بآراء سالفه وتجاربه يجتهد فى تصغيره وتحقيره حتى ينطفىء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدرى أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم للآن فإنه ماولى إنسان عملا بعد رجل آخر إلا أن اجتهد أن يسىء سمعته ويبين للناس أنه لم يكن يحسن أن يسير فيما ولى سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن يخفى عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك فى إدارته حتى يكون للأول الاسم وحده والأمة التى عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن أن تنجح أو تسود.

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على مافعله أبو المهاجر فاعتذر اليه ووعده بإعادته إلى عمله وتمادى الأمر حتى توفى معاوية وسنبين لكم فى خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله.

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فإنه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقى أبناؤهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال أوترى ذلك يتم قال نعم. فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لى بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى.

فسار المغيرة إلى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه يعلم أنه شيعة لبنى أمية، أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم وفدا عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزينوا

له بيعة يزيد فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد . فأرسل إلى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميرى وقال إن لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعا وإن الناس قد أبدع بهم خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد رجلين رجل آخرة يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف فى نفسه وعقل يصون حسبه قد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف إن أمير المؤمنين كتب إلى يستشيرنى فى البيعة ليزيد وأنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة أمر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ماقد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالامر فأحرى لك أن يتم لك ولا تعجل فإن دركا فى تأخير خير من فوت فى عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وماهو قال لاتفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى البيعة له وإنك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وإنك ترى له ترك ماينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ماتريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة فقال زياد لقد رميت الأمر بحجره اشخص على بركة الله فإن أصبت فما لاينكر وإن يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضى الله بغيب مايعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة وأن لايعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له إنى كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم فقالوا أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد إليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبدالرحمن ابن أبى بكر وقال ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن على وعبدالله بن عمر

وعبدالله بن الزبير فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والأحنف بن قيس فى وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية أن كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى أمر أمة محمد ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت الوفود عنده إنى متكلم فإذا سكت فكن أنت الذى تدعو إلى بيعة يزيد وتحثنى عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وماأمر الله به من طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ياأمير المؤمنين إنه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيراً فى العاقبة والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو فى شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن هديه وقصد سيرته أعلى ماعلمت وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأيا فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعا نلجأ اليه ونسكن فى ظله. ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للأحنف بن قيس ماتقول يا أبا بحر فقال نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا. كان معاوية يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلى الحجاز فى ألف فارس فلمادخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت أن أغنت النذر ثم أنشد متمثلا.

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو أطعنى وانطلق
إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ماسرك منى من خلق
دونك ما استسقيته فاحس وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلى مكة فخرج معاوية إلى مكة وقضى

بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذى يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم وحملى ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم فى شىء من ذلك فقال ابن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن: قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر قال معاوية ليس فيكم مثل أبى بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فإنى أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح فإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أنى أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على حبشى لدخلت معها .

ونقول أن فكر معاوية فى اختيار الخليفة بعده حسن جميل وأنه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار فأحسن ما يفعل هو أن يختار الخليفة ولى عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذى هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة فطلب وفود الأنصار فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذى ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الأمة الذين

يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين ؛ لاجرم أن كان من نتائج تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد .

(٣) مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا إن هذه الطريقة التي سنها معاوية ، تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعل في أسرة الخلافة الترف والانغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس ؛ أما رأينا في ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً حتما لابد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فإنه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة وإذا انضم إلى ذلك اتساع الممالك الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب فإن الاختلاف لابد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين أن أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل علي ويسوقون الخلافة في بنيه يتركها الأب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الإسلامية .

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

إن الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماما يأخذ كل إنسان ماله ويعطي ما عليه فإن تأخر في واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدي الميل لم تكثر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولا يخرجه عن حقيقته التي تدعو الناس إلى التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فإن الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل

إهراق الدماء ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابى الذى أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال إن فى قتلك صلاحا للرعية. لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلا لينا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفاً وقتياً

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى بأمره وكان يعلم يقينا أن هذه الأقوال مما يهيج صدور شيعته ويجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندرى ما الذى حمله على أن جعل ذلك فرضا حتما فى كل خطبة كأنه ركن من أركانها لا تتم إلا به.

من المحدثات الجليلة التى حدثت فى عهد معاوية البريد ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل فى كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة، فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعا حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال فى أسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا وتسمى هذه المسافة بريداً. وروى ياقوت فى معجم البلدان أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم فى سيرهم فقيل بريد أى قطع فعرب فقيل خيل البريد. وقال ياقوت إنه روى هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح فى القياس والنظر.

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شىء من ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين، وإنما اتخذه بعد أن كان ما كان من إرادة الخارجى قتله.

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير

فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لاتحزم .

كان كاتب معاوية سرجون الرومى لأن ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر أنه كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصارى ثم أبو إدريس الخولانى ومعنى ذلك أنه كان قاضى الشام وكان لكل ولاية قاض خاص .

بيت معاوية

(١) تزوج ميسون بنت بحدل وهى أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلى فولدت له عبدالرحمن وعبدالله ومات عبدالرحمن صغيراً (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كنوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك .

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق فى جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائبا فأحضر معاوية الضحاك ابن قيس ومسلم بن عقبة المرى وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان قبها (يابنى إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فإن عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وغيبتك فإن رابك من عدوك شىء فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فانهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وإنى لست أخاف أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة من قريش الحسين بن علىّ وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين ابن علىّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه فإن له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ليس له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها فظفرت به فقطعه إربا إربا ، واحقن دماء قومك ما استطعت) ثم مات بدمشق

لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ إبريل سنة ٦٨٠م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج إلى يوم القيامة فمن كان يريد أن يشهده فعنده الأول وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلى يزيد فقال فى ذلك يزيد :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا فى كتابكم ... قال الخليفة أمسى مثبتا وجعا
ثم انبعثنا إلى خوص مزممة ... نرمى الفجاج بها لا نأتلى سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفى على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئا بعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعا فماتا قاطنين معاً
أغر أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه.

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الأول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحيرة
حصار مكة — الفتوح فى عهد يزيد — بيته ووفاته

٣ — يزيد الأول

هو يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان وأمه ميسون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى فى حجر الإمارة ولما شب فى خلافة أبيه

كان يرشحه للإمارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله فى الجيش الذى غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرما بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذ ذاك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامى بعد .

كيفية انتخابه ·

عهد إليه أبوه بالخلافة من بعده بعد أن استشار فى ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن على وعبدالله ابن الزبير وعبدالله بن عمر : فلما توفى معاوية لم يكن ليزيد إلا مبايعتهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسيناً وعبدالله بن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعى معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال أما البيعة فإن مثلى لا يبايع سرا ولا يجتزى بها منى سرا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال إنى عائذ بالبيت ولم يكن يصلى بصلاتهم ولا يفيض فى الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن على وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه .

أما ابن عمر فإنه قال إذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس .

حادثة الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلى عندها عامة النهار ويطوف ويأتى الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأى وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لأن أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين بالبلد : لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة إلى منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعى واتفقوا أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه

ليبايعوه فكتبوا إليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب إليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذى اقتصصتم وقد بعثت إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلىّ بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلىّ أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الحجى منكم على مثل ماقدمت به رسلكم أقدم إليكم وشيكا إن شاء الله فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف فإن رأى الناس مجتمعين عجل إليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصارى فأقبلت إليه الشيعة تختلف إليه. ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد: فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافية ثم قال إنى لا أقاتل إلا من يقاتلنى ولا أثب على من لا يثب على ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذى لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفى ماثبت قائمه بيدى ولو لم يكن لى منكم ناصر ولا معين أما إنى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل فقام إليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له إنه لا يصلح ماترى إلا الغشم إن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلىّ من أن أكون من الأعزين فى معصية الله ونزل. فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فان النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيدالله بن زياد أمير البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال: (أما بعد فان أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم وفيئكم وأمرنى بانصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشفيق وسيفى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى فليبق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال اكتبوا لى

الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم إلى برئ ومن لم يكتب لنا أحدا فليضمن لنا ما فى عرافته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغى علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره ألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهانى بن عروة المرادى فأجاره متكرهين وصارت الشيعة تختلف اليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانىء فاستقدم هانئا فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيدالله .

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

فقال هانىء وماذاك فقال ياهانىء ماهذه الأمور التى تربص فى دارك لأمير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفى لك وقد أراد هانىء أن ينكر فلم يجد إلى الإنكار سبيلا فطلب منه ابن زياد أن يسلم اليه مسلما فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى فى أصحابه بشعارهم يامنصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله فى الدور أربعة آلاف فاجتمع اليه ناس كثير فعبأهم وأقبل إلى القصر فأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من الأشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثى وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الأشراف وأبقى عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل فى المسجد إلا ثلاثون رجلا فحار فى أمره أين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل اليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث إنى أراك تعجز عن أمانى فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالى ويقول له عنى ليرجع بأهل

بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذى كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جىء بمسلم إلى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانىء بن عروة المرادى

أما أمر الحسين فإنه لما عزم على المسير إلى الكوفة جاءه عمرو بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغنى أنك تريد العراق وإنى مشفق عليك أن تأتى بلدا فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً. وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرنى ما أنت صانع. فقال قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين فقال له ابن عباس أعيذك بالله من ذلك خبرنى رحمك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبى بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك ، فقال الحسين فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون. ثم جاءه ابن عباس ثانى يوم فقال يا ابن عم إنى أتصبر ولا أصبر إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ، ثم اقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس فى عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية. فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فإنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه فلم يغن كلامه شيئاً. ثم سار بأهله وأولاده فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله عن خبر الناس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. ثم جاءه كتاب من عبد الله بن جعفر يقسم عليه بالله إلا ما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجوع فأبى وتمم على وجهه فقابله عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك أنشدك الله

فى حرمة العرب فوالله لئن طلبت مافى أيدى بنى أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبنى أمية فأبى إلا أن يمضى.

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله إلا مارجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثارنا أو نذوق كما ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله إلا ما انصرفت فوالله ماتقدم إلا على الأسنة وحد السيوف إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً فأما على هذه الحال التى تذكر فلا أرى أن تفعل فأبى أن يرجع ولما ترك شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر ابن يزيد التميمى فقال لهم الحسين أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن اقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى فقد جئتكم فإن تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلنا منه فلم يجيبوه بشىء فى ذلك ثم قال له الحر إنا أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ماتريد فقال أما والله لو غيرك من العرب يقولها ماتركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكنى والله مالى إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن مايقدر عليه ثم صار الحر يراقبه حتى لا يتمكن من الانصراف إلى المدينة فسار الحسين يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبى وقاص فلما قدم أرسل الحسين رسولا يسأله ما الذى جاء به فقال الحسين كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما إذ كرهونى فإنى أنصرف عنهم فكتب عمر إلى ابن زياد بذلك فقال:

ألان إذ عرضت مخالبنا به ... يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فإذا قبل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء؛ وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع إلى المكان الذى خرج منه، وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده فى يد يزيد

فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال وفى عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذى لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه . وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه ، وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر ، فأمّا قوله أبوه خير من أبى فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما قوله أمه خير من أمى فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ، يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فأدخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن ، ثم قرب إليه على بن الحسين وجهزهن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلى يا بنى كاتبنى بكل حاجة تكون لك .

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التى أثارها عدم الأناة والتبصر فى العواقب فإن الحسين بن على رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة فى الأعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى فى آخر حياته الخلاص منهم ، أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان فى العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يفخرون عقيرتهم بأنهم شيعة على بن أبى طالب ؛ وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيما فى خروجه هذا الذى

جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها . غاية ما فى الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته لحيل بينه وبين مايشتهى وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين ومن يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على مافعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهى أنه لا ينبغى لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة مايكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنه لا بد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خالف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف .

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هى فى نظرنا أدهى وأشنع وهى انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحى الإلهى وهى التى حرمها عليه السلام كما حرم إبراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة أحدهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى، فكيف بانتهاك حرمتهما معاً فى سنة واحدة ؟

أما حادثة المدينة فإنه فى عهد إمارة عثمان بن محمد أبى سفيان عليها أوفد إلى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الأنصارى وعبدالله ابن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبدالله بن حنظلة وكان شريفا فاضلا عابداً سيداً مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلى المدينة أقاموا فى أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبدالله ابن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصارى إلى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزوم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لا طاقة لكم بأهل

الشام فلم تجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلا :

لقد بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المزني وكان عدة من تجهز معه اثنا عشر ألفا وقال له يزيد ادع القوم ثلاثا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيرا فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه. سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم أن لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوا وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادي القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا أستطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدوا فانتهره وقال والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من ثمره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم. ثم دخل عليه مروان فقال إيه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأي رجل عبد الملك فلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني.

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إراقة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا المحل الذي بمكة وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جدا ولكن

انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال وبعد دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنهم خول ذلك له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلى بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣

وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية. إنهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتمل الحصار كثيرا لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجىء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين. بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثا احتراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم. هذا وإنا نعوذ بالله من الرءوس التى إذا هاجت لا تنظر فى عاقبة ولا تفكر فى مستقبل.

حصار مكة

وثالثة الحوادث التى معظم تبعتها على عبدالله بن الزبير حصار مكة فإن مسلما لما انتهى من أمر المدينة سار قاصدا مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامى وقد أدركت المنية مسلما بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبدالله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفى الخارجى لمنع البيت، فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حربا انكشف فيها أصحابه فسار راجعا إلى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعى يزيد بن معاوية فوقف القتال. هذه ثلاث

كبرى داخلية حصلت فى أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروها حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل إن الذى يتحمله جزء صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وإنما الذى عليه تلك الشدة التى أجرتها جنوده بعد أن تم لها النصر.

الفتوح فى عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك ، فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبى المهاجر وأوثقه فى الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذرارى والأموال ثم سار فى عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة ، فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الراب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم ، ثم رحل إلى تاهرت ؛ فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومى اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقيته البربر فى جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ، ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات ، فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفاً منه ، ولما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من العدو ، وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهوذا لينظر إليها فى نفر يسير ، فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان فى الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم فى أيام أبى المهاجر فلما جاء عقبة وأساء

إلى أبى المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فإنى أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة فى أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبنى عمه ، وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم . فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان فى القيروان قيس بن زهير البلوى خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها أما كسيلة فإنه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الأنفال والذرارى من المسلمين واستولى على إفريقية وسنبين ما كان من أمره بعد .

وفاة يزيد

لأربع عشر خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفى يزيد ابن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما .

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبدالله وكان أرمى العرب وكان له من الأولاد : عبد الله الأصغر ؛ وعمر ؛ وأبو بكر ؛ وعتبة ؛ وحرب ؛ وعبدالرحمن لأمهات أولاد شتى .

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثانى — عبدالله بن الزبير — حال الشام — مروان الأول
عبد الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير

بعد موت يزيد كانت بيعتان أحدهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بمكة والحجاز لعبدالله بن الزبير .

فأما معاوية فكانت سنه إحدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فأنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته .

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه القدرة على لم شعثها وإصلاح أمرها .

أما ابن الزبير فإن يزيد مات وحصين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحصين بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الأمر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له أنا لا أهدر الدماء والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحصين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول والله لا أفعل فقال له الحصين قد كنت أظن لك رأياً وأنا أكلمك سراً وتكلمنى جهراً وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل إلى

المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد .

هذا حال الشام لا إمام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن زياد لما بلغه نعى يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدى فيكم ولقد وليتكم وما يحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة ألف وما كان يحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو فى سجنكم وإن يزيد قد توفى واختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلا ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيه فيما دخل المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضى حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغنى الناس عنكم . فقالوا له قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له فى الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه . ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه إلى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدى ثم بمسعود ابن عمرو سيد الأزد فأجاراه حتى هرب إلى الشام . واختار أهل البصرة واليا عليهم عبد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببية فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الإمارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أمير وكتب أهل المصرين إلى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده . وكذلك دخل فى بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق إلا الشام .

حال الشام

كان رأس بنى أمية بالشام مروان بن الحكم ، وكان أمير دمشق الضحاك بن قيس وكان هواه فى ابن الزبير يدعو له وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابى وهواهم كلهم فى ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين

حسان بن مالك الكلبي وهواه فى بنى أميـة وقد بايعه على الدعوة لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبدالله وخالداً ابنى يزيد لأنهم قالوا إنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان إلى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بنى أمية وحسن بلاغتهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتابا آخر سلمه لرسوله وقال له إن قرأ الضحاك كتابى على الناس وإلا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبى سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين فى دمشق فريقين فقيس تدعو إلى ابن الزبير وكلب تدعو إلى بنى أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أميـة وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلى أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على توليـة مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٦٤ .

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابيـة إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة فى مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها فى موطن قط وكانت الوقعة فى المحرم سنة ٦٥ ، ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت إليه قيس وقد صحبه فى هزيمته شابان من بنى سليم فجاءت خيل مروان بطلبه فقال الشابان لزفر أنج بنفسك فإنا نحن نقتـل فمضى وتركهما فقتلا وقال زفر فى ذلك ،

أرنى سلاحى لا أبالك إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هى ماهيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط ... لحسان صدعاً بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ... ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم تر منى نبوة قبل هذه ... فرارى وتركى صاحبى ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى ... من الناس إلا من علىّ ولاليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعرى هل تصيبنّ غارتى ... تنوخا وحي طيئ من شفائيا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها.

لم تطل مدة مروان فى سلطانه فإنه توفى فى رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبدالملك ثم عبدالعزيز.

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان فى عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومدبراً وولى لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه لولا عبدالله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره فى الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولى أمر الأمة من بعده ابنه.

٥ — عبدالملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية ابن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ولما شب كان عاقلا حازما أديبا لبيبا وكان معدودا من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي

ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبدالملك فإنى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه .

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه ، وكانت الحال فى البلاد الإسلامية على غاية الاضطراب . فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير ، وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته وشيعة تدعو إلى آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل فتلقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه .

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل مايفتحه فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبدالملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين ابن على ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعى فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبدالملك قتل سليمان قام خطيباً فى أهل الشام فقال : إن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الأزدى وعبدالله بن وال البكرى ، ولم يبق بعدهم من عنده امتناع .

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبى عبيد الثقفى وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبدالله ابن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذى أرسله للأخذ بثأر

الحسين ولقبه بالإمام المهدى وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدى فى عالم الوجود وكان يود أن يتبعه على رأيه ابراهيم بن الأشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولى الأمر فقالوا له : إنّ المختار قد جاء من قبل المهدى وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدى إلى ابراهيم ابن مالك الأشتر) فقال إبراهيم قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إلىّ فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه ، قال المختار : ذاك زمان وهذا زمان ، قال ابن الأشتر : فمن يعلم أنّ هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب فى التاريخ الذى بيناه . ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال على أمصار الكوفة وكان من أهم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذى أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر ابن سعد وغيره ممن كان فى ذلك البعث ، ثم دخلت فى بيعته البصرة . وكان عمل المختار سبباً لتغيير ابن الزبير على محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه ، ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بدا له فعاد إلى مكة ونزل شعب أبى طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها .

ثم إنّ المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الأشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا فى نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الأشتر العمال إلى البلاد الجزرية .

بعد أن تم الأمر للمختار ولى ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه ﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا

عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين) وأشار نحو الشام - (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض) - وأشار نحو الحجاز - (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة - وقال يا أهل البصرة بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسى بالجزار .

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيما قاده بنفسه ومعه أشراف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قاتل مصعبا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال فى ذلك عمر بن أبى ربيعة .

إن من أعجب العجائب عندى قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه يشذنا حيث يقول

إذ ما أراد الغزو لم يثن همه حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعبا فتجهز له وجعل على مقدمته إبراهيم ابن الاشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق الذين كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقى مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد .

وإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصرين عمالا من قبله قال بعض الشعراء فى مقتل مصعب :

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب فمات كريما لم تذم خلائقه
ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه فعاش ملوما فى الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله يشاوره مرا ومرا يعانقه
فولى كريما لم تنله مذمة ولم يك وغدا تطبيه نمارقه

بذلك لم يبق خارجا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندا إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه فى جمادى الأولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان إلى الحجاج وكان ممن فارقه ابناه حمزة وحبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئا دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر فقال يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن قتلت كنت على حق فلما ادهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن. فقال :

يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى. قالت يا بنى إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيى والذى خرجت به دائبا إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة فانظرى يا أماه فإنى مقتول يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله فان ابنك لم يتعهد إيثار منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى. اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله

تعزية لأمى حتى تسلو عنى فقالت أمه لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلا إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك أخرج حتى أنظر إلى مايصير إليه أمرك فقال جزاك الله خيراً فلاتدعى الدعاء لى قالت لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك .

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبدالملك فى جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقى الحجاج والياً على مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبدالملك عنهما وولاه العراقين فسار إلى الكوفة فى اثنى عشر راكباً على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو ملتثم بعمامة خز حمراء فأجمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا　　متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم[1]　　قد لفها الليل بسواق حطم[2]
ليس براعى إبل ولا غنم　　ولا بجزار على ظهر وضم[3]

ثم قال :

قد لفها الليل بعصلبى[4]　　أروع[5] خراج من الدوى[6]
مهاجر ليس بأعرابى

وقال : قد شمرت عن ساقها فشدوا　　وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد[7]　　مثل ذراع البكر أو أشد
لابد مما ليس منه بد

---

(١) يعنى فرسا أو ناقة　(٢) الحطم الذى لا يبقى من السير شيئاً　(٣) الوضم كل ماقطع عليه اللحم　(٤) الشديد　(٥) ذكى　(٦) الصحراء الواسعة التى تسمع بها دوياً بالليل ويريد بها الفلاة الشديدة　(٧) شديد

إنى والله يا أهل العراق مايقعقع لى بالشنان(١) ولا يغمز جانبى كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء(٢) وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم(٣) عيدانها فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم(٤) فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكاهل قرية ﴿كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ وإنى والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ.

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً فقال الحجاج أكفف ياغلام ثم أقبل على الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نهيه(٥) أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم فلم يبق أحد فى المسجد إلا قال على أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الأمير إنى من الضعف على ماترى ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى فتقبله بدلا عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن ضابىء البرجمى الذى يقول أبوه

همممت ولم أفعل وكدت وليتنى   تركت على عثمان تبكى حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار إن فى قتلك

(١) واحدها شن وهو الجلد اليابس فإذا ضرب به نفرت الإبل فضرب ذلك مثلا لنفسه (٢) الذكاء حدة القلب (٣) مضغها لينظر أيها أصلب

(٤) الإيضاع ضرب من السير

(٥) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج.

أيها الشيخ صلاحا للمسين ياحرسى اضربن عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ففى ذلك يقول عبدالله بن الزبير الأسدى :

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أوهى أقربا

من هذه الخطبة وماتلاها تتبين خطة الحجاج التى أراد أن يسوس بها أهل العراق وهى خطة العسف والجور التى قدمنا أنها لاتصلح أمة إصلاحا حقيقياً أبداً وإنما تضع على المرجل غطاء لايلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق وسكونهم إلى هذه الذلة يجيئهم الحجاج فى بضعة عشر راكباًوفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لايرد أحد منهم عليه قولا ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتى .

وبعد ذلك ذهب إلى البصرة نخطب بها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأتى برجل يشكرى فقال أيها الأمير إن بى فتقاوقد رآه بشر بن مروان فعذرنى وهذا عطائى مردود فى بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج الحجاج حتى نزل رستقاباذ فى أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخاً فقام فى الناس فقال إن الزيادة التى زادكم بها ابن الزبير فى أعطياتكم لست أجيزها فقام إليه عبدالله ابن الجارود العبدى وقال إنها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبدالملك أثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برؤوسهم إلى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف إلى البصرة .

فى سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد كان مصالحا وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجا وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج إلى ابن أبى بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا فى بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز إليهم جنداً كثيفا فجهز عشرين ألفا من البصرة ومثلهم من الكوفة

وجد فى ذلك وشمر وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولايرى رجلا تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم عبدالرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس إن الأمير الحجاج ولانى ثغركم وأمرنى بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم وأباد أخياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة أخرجوا إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس. فعسكر الناس فى معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل أول بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلداً بعث إليه عاملا وبعث معه أعوانا ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها ثم نتعاطى فى العام المقبل ماوراءها ثم لم نزل ننتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وفى أقصى بلادهم ومتمنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب إلى الحجاج بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج أما بعد فإن كتابك أتانى وفهمت ماذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة قد صانع عدواً قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم فى الإسلام عظيما لعمرك ياابن أم عبدالرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخى النفس عمن أصيب من المسلمين إنى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وقال فى كتاب آخر إن لم تفعل فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وماوليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضى أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبدالرحمن فبعث إلى رتبيل فصالحه وعاد من سجستان إلى العراق مصمما على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول :

شطت نوى من داره بالإيوان * إيوان كسرى ذى القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان * أن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان * أمكن ربى من ثقيف همدان
يوما إلى الليل يسلى ما كان * إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان * بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان * ومن معه قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الأرنان * فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان * فإنهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين ، ولما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود إليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعا حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها فى آخر ذى الحجة سنة ٨١ ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثى على ركبتيه وانتضى نحواً من شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر فمضى ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دير قرى وخرج ابن الأشعث حتى نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك

وجندك فاعمل برأيك فإنا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجاجم هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها فى الرابع عشرة من جمادى الآخرة سنة ٨٣ ففيه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادى المنادى من رجع فهو آمن . وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال أخادعى أنت عن نفسى أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد .كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجاجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو أمانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبى فقيه العراق فذكره الحجاج يوما فقيل له إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث إليه بالشعبى فأرسله فلما قدم سلم عليه بالإمرة ثم قال أيها الأمير إن الناس قد أمرونى أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلا حقا والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وما جرك إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا فقال له الحجاج أنت والله أحب إلى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا ياشعبى فانصرف فلما مشى قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس ياشعبى بعدنا فقال أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفا قال انصرف ياشعبى وجىء إليه بأعشى همدان فقال إيه ياعدو الله أنشدنى قولك بين الأشج وبين قيس باذخ قال بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن ويعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من روعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهى قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم

فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم .

أما ابن الأشعث ؛ فقد تقلبت به الأحوال ، وانتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل مستغيثاً به ، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ؛ فأراد رتبيل أن يرسله ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلا من أقاربه ، وأرسل بالرؤوس إلى الحجاج .

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهى مصابة بالفتن والاضطرابات فى معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لايخشون عاقبة ولا يراعون الله فى أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله فى كراهة الفتن والدخول فى غمارها ولانخلى ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ، ويكرهوها على الطاعة إكراهاً من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشىء مما تحبه .

من الضرورى أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج فى هذه المدة ؛ لتكون صورة الأمة كلها ممثلة أمام أنظاركم فى ذلك العهد .

المحاضرة السادسة والثلاثون

الخوارج

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير فى عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق الحنفى أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ماعند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم؟ فلما جاءوه وعرفوه بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل فننظر ماعنده فدخلوا عليه وهو مبتذل فقالوا إنا جئناك لنختبر رأيك ماتقول فى الشيخين ، قال خيراً ؛ قالوا فما تقول فى عثمان الذى أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبى معيط رقاب الناس وآثرهم بفىء المسلمين

وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقررن فى بيوتهن وكان فى ذلك مايدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته ؛ خذلك الله وانتصر منك بأيدينا فقال ابن الزبير إن الله أمر ، وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما فى فرعون ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات » فنهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجاد فى المحاربة والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنبا وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن فى أبويه ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ؛ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ ، وقال جل ثناؤه ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وهذا الذى دعوتم إليه أمر له مابعده وليس يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمرى إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه . فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل مايعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان ممن سار إلى البصرة نافع بن الأزرق فى أصحابه وقد أمروه عليهم ثم مضى بهم إلى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحدا ويناظرهم الناس وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفئ ولم يزل الخوارج على رأى واحد حتى ظهر من نافع ابن الأزرق القول بأكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال الدار دار كفر

إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبدالله بن أباض أما أباض ومن نحا نحوه من النجدية فإنهم كانوا يقولون إن عدونا كعدو المرى . أما أباض ومن نحا نحوه من النجدية فإنهم كانوا يقولون إن عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نحرم مناكحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفار النعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبدالله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بيهس فإنه قال أعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجرى عليهم وزعم أن مناكحتهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق وأباضية أصحاب ابن أباض وبيهسية أصحاب أبي بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً .

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أجيب المقالة جبا الخراج ونشأ عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الأحنف ابن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى فقال الأحنف إن فعلهم في مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالا شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة ابن عبيس نافع بن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغداني وولى أمر أهل البصرة الخوارج عبد الله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بنى يربوع فاقتتلوا قتالا شديداً نيفا وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميرى فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعدوا بآلات الدروع والجواشن حتى انهزموا وقد كره بعضهم

بعضاً وملوا القتال فإنهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم فى حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة فى ذلك اليوم من الشعر

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد فى حومة الوغى ... تعوم وظلنا فى الجلاد نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا لأمر الخوارج إلا المهلب ابن أبى صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكون له ولاية ماغلب عليه وأن يعطى من بيت المال مايقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوى الشرف من أحب أجابوه إلى ماشرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الأهواز يقال له صلى وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فإن ذلك قواهم حتى قتل أمير الخوارج عبيد بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة. بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإنا قد لقينا الأزارقة المارقة

بجد وجد ، فكانت للناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا درئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام فكتب إليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أخا الأزد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهادم أركان المشركين ، وأخا السياسة والرياسة ، فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام . فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال : أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الأزد ؛ ما أهل مكة إلا أعرب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبدالله . ولما ولى مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بأرجان وعليهم الزبير بن على السليطى فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها ، فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا . ثم أتوا سابور فسار اليهم ونزل قريباً منهم فقال له مالك بن حسان إن المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على بعد المسافة منهم فقال له عمر : اسكت ؛ خلع الله قلبك ، أتراك تموت قبل أجلك ، فأقام هناك وفى ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء ، فقال لمالك : كيف رأيت ؛ قال قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما إنكم لوناصحتمونى مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو ولكنكم تقولون قرشى حجازى بعيدالدار خيره لغيرنا فتقاتلون معى تعذيراً ثم زحف إلى الخوارج فقاتلهم قتالا شديداً حتى انهزموا وقتل فى الموقعة ابنه عبيد الله فكتب إلى مصعب . أما بعد فإنى قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتنى عنهم عودة فيممتهم وبالله أستعين وعليه أتوكل . ثم سار إليهم وكانوا قد عادوا إلى فارس فأرسل عليهم حتى أخرجهم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم إلى الأهواز وقد ارتحل عمر إلى اصطخر . وما زالوا يروحون ويغدون ويعيثون فى الأرض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب إلى حربهم ، وكانوا قد ولوا أمرهم قطرى بن الفجاءة المازنى فخرج إليهم المهلب ولما أحس به قطرى

يهم نحو كرمان فأقام المهلب بالأهواز، ولما استعد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم إلى رامهرمز وفى تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير فى حربه مع عبدالملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماذا تقولون فى مصعب قالوا إمام هدى قالوا فما تقولون فى عبدالملك قالوا ضال مضل. ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ماتقولون فى مصعب. فسكتوا؛ قالوا فما تقولون فى عبدالملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى ياعبيد الدنيا عليكم لعنة الله.

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لايفعل وقيل له إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فإذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى إلا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبدالعزيز بن عبدالله فسار إليهم حتى قابلهم بدار بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبدالملك به فكتب إليه عبدالملك أما بعد: فقد قدم رسولك بكتابك تعلمنى فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثنى أنه عامل لك على الأهواز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك يجبى الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسى لها ابنها وابن أبنائها أنظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز وقد بعثت إلى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلاتعمل فيهم برأى حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه إن شاء الله. فشق عليه أن قبل رأيه فى بعثه أخيه وترك المهلب وفى أنه لم يرض رأيه خالصاً حتى قال أحضره المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء الأهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا مالهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على حامية وأتبعهم خالد داود بن قحذم فى جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فأتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الأهواز.

وفى ذلك الوقت خرج بناحية البحرين أبو فديك الخارجى فغلب على البحرين وقتل نجدة ابن عامر الحنفى فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى الاهواز وأمر أبى فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبى فديك فانهزم.

ولما رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب اليه أما بعد فابعث المهلب فى أهل مصره إلى الازارقة ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله ورأيه فى الحرب فإنى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفا وابعث عليهم رجلا معروفا شريفا حسيبا صليبا يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم أنهض اليهم أهل المصرين فليتبعوهم أى وجه ماتوجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبد الملك وأمره أن ينتخب من يشاء وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان اليه ذنب ثم دعا عبد الرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له إنك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندى وقد رأيت أن أولك هذا الجيش الذى عرفت من جرأتك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظنى بك أنظر إلى هذا الكذا والكذا يقع فى المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأيا وتنقصه وقصر به، فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبى ويستجهل. وهكذا فى كل زمان وفى كل أمة من يدوس المصالح العامة إرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة ولا تهمه الأمة سعدت أو شقيت. رجل يكره رجلا فما بال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه. خرج الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس إلا عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعا حتى جاءهم الأسد الهصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفا ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما

تتابع مسير الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوهم عن رامهرمز فساروا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان: كان المهلب يخندق دائماً على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة.

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان فى أيدى الخوارج وفارس فى يدى المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذى هم به لا يأتيهم من فاس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت وهى مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث اليه الحجاج مع البراء ابن قبيصة كتابا يقول فيه: أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك؛ وقد بعثت اليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشدّ الجهاد وإياك والعلل والأباطيل والأمور التى ليست لك عندى بسائغة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيه كل ابن فى كتيبة وأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشدّ قتال الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار. ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس وبنيه فى كتائبهم فقاتلوهم كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شىء.

حدث فى معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم فى حسبان ذلك أنّ رجلا من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطرى أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأوّل فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطريا وولوا عبد ربه الكبير وبقى على بيعة قطرى منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضا وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم فى وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى

المهلب فتركه الحجاج ورأيه . استمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم إن قطريا خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم إلا القليل وأخذ عسكرهم ومافيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين . ولكعب الأشقرى قصيدة طويلة يذكر يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

يا حفص إنى عدانى عنكم السفر وقد سهرت فأودى نومى السهر

وهى من غرر الشعر العربى وقد أنشدها بين يدى الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرنى عن بنى المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم وكفى بيزيد فارساً شجاعا وجوادهم وسخيهم قبيصة ولايستحي الشجاع أن يفر من مدرك وعبدالملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ماخافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فإذا أليلوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج إن العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطرى قال كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذى تحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشا فيهم الأمن وشملهم النفل قال أكنت أعددت لى هذا الجواب قال لايعلم الغيب إلا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافى بالاسلام فقد ماسواه الذى حكم بأن لاينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ماقد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة فى وقت إمكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ : فكتب إليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فإذا ورد

عليك كتابى فاقسم فى الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهما من ولدك ولا ترخص لأحد فى اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم على وعجل القدوم إن شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بنى إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك ؛ فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئا فوجهه إلى وتفضل على قومك ووفد المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبره وقال يا أهل العراق إنكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الأيادى .

وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه ... هم يكاد حشاه يقصم الضلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأى لا قحماً ولا ضرعا (١)

فقام إليه رجل فقال أصلح الله الأمير والله لكأنى أسمع الساعة قطريا وهو يقول المهلب كما قال لقيط الأيادى ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتى امتلأ سرورا فقال المهلب إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لى القوم الذين أبلوا وصف لى بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم فى البلاء وتفاضلهم فى الغناء وقدم بنيه وقال إنه والله لو تقدمهم أحد فى البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت أعلم بهم منى وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبى صفرة وأشباهه ، فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنا فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الأمير إنى كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمنى الصبر ويجعلنى أسوة نفسه وولده ويجازينى على البلاء صرت أنا وأصحابى

---

(١) القحم آخر سن الشيخ ، والضرع الصغير الضعيف

فرسانا فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعته شبيها بذلك ، قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب :

إنى امرؤ أكفنى ربى وأكرمنى ... عن الأمور التى فى رعيها وخم
وإنما أنا إنسان أعيش كما ... عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ماعقنى عن قفول الجند إذ قفلوا ... عى بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولا ما تجهمنى ... إذن الأمير ولا الكتاب إذ رقموا
إن المهلب إن أشتق لرؤيته ... أو أمتدحه فإن الناس قد علموا
إن الأريب الذى ترجى نوافله ... والمستعان الذى تجلى به الظلم
القائل الفاعل الميمون طائره ... أبو سعيد إذا ما عدت النعم
أزمان أزمان إذعض الحديد بهم ... وإذ تمنى رجال أنهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته فى أسفل الشعب فتدهدى حتى خر إلى أسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم فى قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوهم حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧ ، وبذلك انتهى أمر الأزارقة بعد أن ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة .

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمى ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا مخبتاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ماأدرى ماتنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قدفشا وهذا العدل قد عفا ولاتزداد هذه الولاة على الناس إلا علواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذى تريدون فيأتونكم فنلتقى وننظر فيما نحن صانعون وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب إلى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا فى هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ٧٧ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوما يريدونكم وينصبون لكم فإنكم إنما خرجتم غضباً لله حتى انتهكت محارمه وعصى فى الأرض

فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملوا بها فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون . ثم أقاموا بأرض دارآ ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارآ ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث إليهم جنداً عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جنداً عدته ثلاثة آلاف ، فأشحوا الخوارج حتى تركوا مكانهم ، وساروا فقطعوا ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل إليهم الحجاج جند أعدته ثلاثة آلاف ، فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح بن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن . ومازالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل إليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج لاهم فى عدد لايتجاوز المئتين عداً وأخيراً جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فساداً وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع إليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه لكنها لم تنل منه منالا وهو فى كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب إليه أن يرسل إليه جنداً من أهل الشام فوجه إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج إليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفاً ومن الغريب أن الألف هزمت الخمسين : وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج إليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم ياأهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين ، ولايغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم ، غضوا الأبصار وأجثوا على الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل إليهم شبيب فى تعبية فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الأسنة وثبوا فى وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدما ومازال القتال بينهم عامة اليوم وقتل فى هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج فى أثره جنود الشام حتى قابلوه بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جداً وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب فى النهر وتفصيل الوقائع التى جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب فى سنة واحدة .

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح فى الشرق — الفتوح فى الشمال — الحج السكة — ولاية العهد — وفاة عبد الملك وبيته وصفته الوليد الأول — الإصلاح الداخلى

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التى حدثت إبان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبناؤها ففى سنة ٦٥ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالأرض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده فى تابوت فى سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثيوب أو طيب عند الحجبة فى خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب فى إدخاله الحجر ضمن البيت ما روته أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذى فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه فى عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج .

الأحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لأن الأمة إذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يديها من الفتح ولم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف إلا فى بعض الأحيان .

الفتوح فى الشرق

بعد أن انتهى المهلب من أمر الخوارج ولاه الحجاج خراسان ففى سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوجه

معه ابنه يزيد فنزل فى عسكره وكان الملك يومئذ اسمه السبل فى عسكره على ناحية فبيت السبل ابن عمه فكبر فى عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم فأمره الملك وقتله فى قلعته فأتى يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها إليه ورجع إلى المهلب ووجه المهلب ابنه حبيبا إلى ربنجن فوافى صاحب بخارى فى أربعين ألفاً فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب .

ومكث المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السغد وما وراء ذلك قال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعا شديداً وولى مكانه ابنه يزيد . ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفى بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ فى الأجل وتثرى المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا يجتمع أموركم إن بنى الأم يختلفون فكيف ببنى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فإنى أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم لذكرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم فى الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع فى الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء أنزل القضاء فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل مافرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه لقدمناه ومات المهلب وأوصى إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب إياه فأقره وتوفى فى ذى الحجة سنة ٨٣ فقال نهار بن توسعة التميمى .

ألا ذهب الغزو المقـــرب للغنى   ومات الندى والجود بعد المهلب

أقمنا بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
إذا قيل أى الناس أولى بنعمة ... على الناس قلناه ولم نتهيب
أباح لنا سهل البلاد وحزنها ... بخيل كارسال القطا المتسرب
يعرضها للطعن حتى كأنما ... يجللها بالأرجوان المخضب
تطيف به قحطان قد عصبت به ... وأحلافها من حى بكر وتغلب
وحيا معد عوذ بلوائه ... يفدونه بالنفس والأم والأب

وفى ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيرك بباذغيس واحتلها وكان مالكها قد خرج عنها فلما جاء صالحه على أن يدفع إليه ما فى القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيى بن يعمر العدوانى ونص كتابه «إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار» فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد فقيل له يحيى بن يعمر فكتب إلى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالأهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبى وكان فصيحا قال من هناك قال فأخبرنى هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيرا قال ففلان قال نعم قال أخبرنى عنى أألحن قال نعم تلحن لحنا خفيا تزيد حرفا وتنقص حرفا وتجعل أن فى موضع إن وإن فى موضع أن قال أجلتك ثلاثا فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان وفى سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل. وفى عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر. ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطى الناس كلما جاءه شىء وإن غنم شيئا قسمه بينهم. ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى وسيكون له ذكر جميل فى خلافة الوليد.

الفتوح فى الشمال

لم يكن من الممكن فى عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفى سنة ٨٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك فى الوقت الذى يتجهز فيه عبدالملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدى عبدالملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين ولما

انقشعت هذه السحابة واستقر الأمر لعبد الملك عادت الغزوات إلى بلاد الروم فنظمت الشواتى والصوائف وافتتح عبدالملك قيسارية وفى سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان أمير جندها عبيدالله بن عبدالله وفى سنة ٨٤ غزا عبدالله بن عبدالملك ففتح المصيصة

الحج

كان الذى يقيم الحج عبدالله بن الزبير فى عهد خلافته وفى سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية ابن الحنفية فى أصحابه فى لواء وابن الزبير فى لواء ونجدة الحرورى فى لواء ولواء بنى أمية . قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعا فجئت محمد بن على فى الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فانا فى مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلى ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يروم منى وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك النجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى وهؤلاء أهل خلاف فقلت أرى لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحرورى فأجده فى أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال أما أن أبتدئ أحداً بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت فإنى رأيت الرجلين لا يريدان قتالك . ثم جئت شيعة بنى أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدا إلا إن قاتلنا . ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بنى أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس . وهذه حادثة غريبة فى تاريخ الحج . وبعد قتله كان يقيمه عمال بنى أمية .

السكة الإسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم فى بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير فى بلاد الروم حتى كانت سنة ٨٤ من الهجرة وهى سنة الجماعة ضرب عبدالملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطا والدينار عشرين قيراطا فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامى وأمر عبدالملك الحجاج أن يضربها

بالعراق وقد نقش عليها أولا باسم الله ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك فى بقية الأمصار الإسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولى عهده عبدالملك ثم من بعده عبدالعزيز بن مروان ففى سنة ٨٥ أراد عبدالملك أن يعزل عبدالعزيز ويولى مكانه الوليد بن عبدالملك فاستشار قبيصة ابن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامى فقال لو خلعته ما انتطح فيه عنزان فبيناهو على ذلك إذ جاء الخبر بوفاة عبدالعزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن اسماعيل المخزومى وطاف به وحبسه فكتب عبدالملك إلى هشام يلومه على مافعل ويقول : سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وإنا لنعلم ماعنده من شقاق ولا خلاف :

وفاة عبدالملك

فى يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ أكتوبر سنة ٧٠٥) توفى عبدالملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام احد وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ إلى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لأنه ولد سنة ٢٦ .

بيت عبدالملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسى فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام بن اسماعيل المخزومى

فولدت له هشاما (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمى فولدت له أبا بكر واسمه بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له الحكم
(٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومى فولدت له فاطمة
(٧) شقراء بنت سلمة بن حليس الطائى
(٨) ابنة لعلى بن أبى طالب
(٩) أم أبيها بنت عبدالله بن جعفر

وله من الأولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات الأولاد

صفة عبدالملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لاتزعزعه الشدائد ولى أمر الأمة وهى فى غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهى على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا التى ذهبت فى سبيل ذلك كثيرة جداً لأن الأمة حية نشيطة لاتدين إلا للقوة القاهرة التى هى فوق طاقتها والأهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لايمر منه إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبدالملك يقول ماأعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لايصلح أن يكون سائسا . ومما عد من مساوى عبدالملك أنه قال مرة وهو على المنبر من قال لى بعد مقامى هذا اتق الله ضربت عنقه وقد اعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانوا يقفون فى هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لايصلح على أية حال عذراً ومما عدّ من مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمّنه وقالوا إنّ هذا أول غدر حصل فى الإسلام ومن سنّ سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة .

والتاريخ يدلنا على أنّ كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات فى سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحا عالما بالأخبار فقيها وقد قدّمنا شيئا من ذلك فى أول خلافته .

٦ ـ الوليد الأول

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسى ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفى أبوه عبد الملك بويع بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إنه لامقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من قضايا الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذى يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً. أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه. ثم قام إليه الناس فبايعوه.

الحال فى عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة فى جبين الدولة الأموية ففيها قام بإصلاح داخلى عظيم، واشتهر فى الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها فى أنفس الأمم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الأمور ومهدها فاستلمها الوليد والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الأهواء فإن الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم؛ فلم يحركوا ساكناً؛ ولم يوقظوا فتنة.

الإصلاح الداخلى

كان الوليد ميالا إلى العمارة فاهتم فى زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل فى الحجاز وغيره ففى سنة ٨٨ كتب إلى عامله بالمدينة عمر بن عبدالعزيز فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار فى البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التى يستقى منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها. وإصلاح الطرق

من أهم ما يذكر لولاة الأمر فى إصلاح البلاد. ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق: ففى السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوى وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها فى المسجد وأن يشترى دوراً فى مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون مئتى ذراع فى مثلها ومن أبى فليقوم داره قيمة عدل وتهدم؛ ويدفع اليهم ثمنها، فإن لك فى ذلك سلف صدق عمر وعثمان، وأرسل اليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل فى ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملا فابتدئ بعمارته وأدخلت فيه جميع الحجر التى لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا حجرة عائشة التى فيها القبور الثلاثة وكان من رأى بعض أهل المدينة أن لا تكون فى المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين فى صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر فى ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهى بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمساً. أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموى فإن الوليد احتفل له احتفالا عظيما حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شىء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس فى حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا، وبنى الوليد المصانع فى الشام لتسهيل الاستقاء.

ومن الإصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً.

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته، ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بنائه؛ فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد، وبقى سعيد بن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه إلا ريطتان ما تساويان خمسة دراهم فقيل له: لو قمت فأبى أن يقوم قبل الوقت الذى كان يقوم فيه، فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء أن يرى سعيداً حتى يقوم، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة، فقال: من ذلك

الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول له ياأمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد : قدعلمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار فى المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت أيها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل ياأمير المؤمنين . وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الأسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلا . أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل مايصيبهم فى الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكانتهم وأما ذوو السلطان فإنهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدى لهم نصيحة أو يعرفهم واجباً فيحاربونهم لقصد إذلالهم وحط درجتهم ولكن الذى يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فإنه لا يضره شىء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك .

ومن حسنات الوليد استعانته فى عمله بعمر بن عبدالعزيز الذى أعاد سيرة سلف هذه الأمة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبدالرحمن وأبا بكر بن سليمان بن أبى خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم ابن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبدالله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبدالله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم إذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ماأريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن واستشاره فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المزى فولاه المدينة .

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح فى عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج وفاة الوليد — سليمان

الفتوح فى عهد الوليد

اشتهر فى زمن الوليد أربعة قوّاد عظام كان لهم أجمل الأثر فى الفتح الإسلامى وهم:

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى.

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلى.

(٣) موسى بن نصير.

(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

فأما القاسم بن محمد فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل (١) فنزل عليه وكان به بد عظيم والبدّ منارة عظيمة تتخذ فى بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكان كل شىء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة: ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف. ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر دون مهران (٢) فأتاه سمين سربيدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته

(١) مدينة على ساحل نهر الهند.

(٢) نهر السند يصب فى خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة.

ثم إن محمد عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بداهر فى جنوده الكثيرة ؛ وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون ، فقال فى ذلك قاتل داهر :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد

إنى فرجت الجمع غير مغرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمناباذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخلف بها عاملا ، ثم سار فتلقاه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودولتهم ثم تقدم إلى يسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى . ثم انتهى إلى الرور[1] وهى من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم ؛ وقال ما البد إلا كـكنائس النصارى ، واليهود وبيوت نيران المجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً ، ثم سار حتى قطع نهر بياس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله . وفى ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتى الكرج فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر . بعد هذه الفتوح العظيمة التى نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبدالملك فوقف أمر محمد وسنتكلم بعد على خاتمة حياته . وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج ابن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم : إن الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال

---

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان فى الكبر وعليها سوران وهى على شاطىء نهر مهران على البحر وهى متجر وفرضة هذه البلاد وبينها وبين الملتان أربع مراحل وبالقرب من الرور مدينة بغرور .

استغاثة والعدو وقعا ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال ﴿ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لايضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ ثم أخبر عمن قتل فى سبيله أنه حى مرزوق فقال : ﴿ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهوينا .

ثم عرض الجند فى السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ، ودعا إلى بلاده فمضى مع ملك الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساءه جواره وضيق عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضى ثم عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه فى تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن فى مقدم الناس وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم .

وفى سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كان فى يد نيزك أسرى من المسلمين ، فكتب إليه قتيبة يأمره بإطلاقهم ويتهدده ؛ فخافه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لايقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك . فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لايدخلها .

وبعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم فى جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفى ذات يوم لقى المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره

فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فجال المسلمون بينهم وبينها فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو . ولما كان الربيع سار عن مرو فى عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكث وهى من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثنة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم الصغد وأهل فرغانه فاعترضوا المسلمين فى طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالا شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسنا وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع إلى مرو فقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشىء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لى فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وإنها من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو سنة ٩٠ فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم ولكن قتيبة سبقهم إلى بخارى فحصرها وفى أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة فى القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشى إلى بنى تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبى لكم الفداء . فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بنى تميم أتسلموننى اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هزيم بن أبى طحمة المجاشعى على خيل بنى تميم فقال وكيع قدم يا هزيم ودفع إليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هزيم ودب وكيع فى الرجال فانتهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم يا هزيم فنظر إليه هزيم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلى هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله إنك لأحمق فقال وكيع مغضبا أتخالفنى وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فرسه فأقحمه وقال مابعد أشد منه وعبر هزيم فى الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر

وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليصبر ومن لا فليثبت مكانه فصبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل بجنيتيه وقال لهزيم إنى مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا فحملوا فما تثنوا حتى خالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح فى هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه. ولما تم الفتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها.

وفى سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهى مدينة الصغد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجدا وصلى فيه وكان معه فى هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمرو الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار قال لا هذا أحسن وأنا الذى أقول:

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعا إلى مرو واستخلف على سمرقند عبدالله بن مسلم وخلف عنده جندا كثيفا وآلة من آلات الحرب كثيرة. ثم انصرف إلى مرو فأقام بها.

وفى سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش (١) وفرغانة (٢) حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتى فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفى سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر (٣) وهى أدنى مدائن الصين سار اليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها وكان

---

(١) أقليم متاخم لبلاد الترك وإقليمها أكبر إقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنسكث وله مدن كثيرة خربت.

(٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان فى زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ فرسخ ومن ولايتها خجندة.

(٣) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهى فى وسط بلاد الترك.

بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفدا عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابى فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذى يرضى صاحبك قال إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فإنا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب ثم عاد إلى مرو .

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم . كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له فى سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

وأما موسى بن نصير فإنه ذلك القائد العظيم الذى فتح بلاد الأندلس وأدخل الإسلام فى قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الأندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا إن شاء الله فإنا نؤجل الكلام عن فتحه الآن .

وأما مسلمة بن عبدالملك فإن عزيمته ظهرت فى حروب الروم فكان فى كل سنة يسير إليه الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبدالملك ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وإذا ورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم .

ولاية العهد

كان عبدالملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه فى حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن

الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب إليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك . ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه .

وفاة الحجاج

فى شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنه ٥٤ سنة واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة ،

كانت للحجاج نفس تحب العلو فى الأرض ولا تقبل أن يقف فى طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فإن فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت فى سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كان لتلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعى بينهم بالأنباء الكاذبة حتى تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الأول فعسف بأهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع ، أسرف فى القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة التى لا ترد . قال له عبد الملك يوما كل امرئ يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبئ عنى شيئاً . قال أنا لجوج حقود حسود ، ومتى كانت هذه الصفات فى ذى سلطان أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج .

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شرا عظيما : وكان فصيحاً لا يكاد يعادله أحد فى الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصرى وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين : وعلى الجملة فان الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى فى سبيل ذلك أرواحا كثيرة وكان الخراج العراقى فى زمن الفتن والعسف قد قل جدا ، وإنما كما علمتم

لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها إصلاحا حقيقيا وإنما هى طريقة إذلال وإخضاع لايدوم أثرها كثيراً لأن النفوس تنطوى على ما فيها من البغض والكراهة حتى إذا حانت لها الفرصة وثبت.

وفاة الوليد بن عبدالملك

فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ توفى بدير مران الوليد بن عبدالملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث فى الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ إلى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه إذ توفى ستاً وأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر ابناً

٧ — سليمان

هو سليمان بن عبدالملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة.

بويع بالخلافة بعد موت أخيه، وكان بالرملة من أرض فلسطين؛ وكانت لأول عهده أحداث خير وشر.

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد؛ فلما ولى سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبى كبشة السكسكى السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلا:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد، فلما وصل إلى العراق حبس بواسط فقال:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها   رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قد رعتها   ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن فى رجال من آل أبى عقيل حتى قتلهم وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام وتناسى ما فعله ذلك القائد من عظيم الأعمال، ولاندرى كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك.

أما القائد الثانى قتيبة بن مسلم فإنه كان ممن وافق الوليد على غرضه فى عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو يعد من صنائع الحجاج. فلما ولى

سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب ، فكتب إليه كتاباً يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبدالملك والوليد ، وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان ، وكتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته فى صدورهم وعظم صوته فيهم ، ويذم المهلب وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه ، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلى وقال له ادفع إليه الكتاب الأول ؛ فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه إليه فادفع إليه الثانى ؛ فإن قرأه ورماه إليه فادفع إليه الثالث ؛ فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه ؛ فاحتبس الكتابين الآخرين ، فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثانى فقرأه ورماه إلى يزيد ، فأعطاه الثالث فقرأه ؛ فتمعر وجهه واحتبس الكتاب فى يده وحول الرسول إلى دار الضيافة ، ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة فإن قتيبة غير مطمئن إلى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعا سيد بنى تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه . قال رجل من عجم خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ماصنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب إليه أن احتلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته فى الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التى تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأنى قال عبدالرحمن ابن جمانة الباهلى يرثيه :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر   بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والقوم حوله   وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً
دعته المنايا فاستجاب لربه   وراح إلى الجنات عفا مطهراً
فما رزئ الإسلام بعد محمد   بمثل أبى حفص فيبكيه عبهراً

وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجنى عليه وكيع وعلى كل حال فإن الذى

حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبدالملك .

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فإنه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيماً لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب فى معونته وعلى الجملة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم .

أما العامة فإنهم استبشروا به لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم فى عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس .

الفتوح فى عهده :

فى عهد إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جندا وسار إلى طبرستان فقاتله بها الاصبهبذ قتالا شديداً ثم صالحه أخيراً وبينا هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحا عظيما لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فإن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحا عظيما وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه فى خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة فى نعمه عليه وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله)

فى بلاد الروم :

فى عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبدالملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر .

ولاية العهد :

كان سليمان بن عبدالملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولى عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة فى تولية عمر بن عبدالعزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبدالعزيز إنى قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد بن عبدالملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابى هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابى ومرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه.

وفاة سليمان :

يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفى سليمان بن عبدالملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه إذ توفى ٤٥ سنة .

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر — يزيد الثانى

٨ — عمر

هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه .

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذى لم يكن فتح وجمع بنى أمية فى مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان فى كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعى عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبدالملك يسترجع لما أخطأه .

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ماهذا قالوا مركب الخلافة قال دابتى أوفق لى وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبى أيوب وفى فسطاطى

كفاية حتى يتحولوا فأقام فى منزله حتى فرغوه بعد .

كان عمر بن عبد العزيز بعيدا عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم فى الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها . كذلك كان عمر بن عبد العزيز .

فى أول خلافته أرسل كتابا عاما إلى جميع العمال بالأمصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ويزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان وإن الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس علىَّ بهين ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ماقد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسئلة غليظة إلا ماعافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ماألقى عليه من أمر المسلمين .

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبى السرح إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه فإن بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوما إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكوا ظلماً أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابى فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة . فقال أهل الصغد بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا لأن ذوى رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لاندرى لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة فى المنازعة فتركوا الأمر على ماكان ورضوا ولم ينازعوا ؛ وهذا عمل لم نعلم أن أحدا وصل فى العدل اليه .

وبما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم إلا أن يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه اليهم ووجه معه جندا وأوصه بما أمرتك فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلى وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بنى يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير وكان كتاب عمر: بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ولست بأولى بذلك منى فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا، فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. ولما وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذى نقمتم. فقال المتكلم ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم. فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إلىّ رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره علىّ أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركونى ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم. فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إنّ الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا وقال إبراهيم ﴿فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾ وقال الله عز وجل ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بدّ منها فإن قلتم إنها فريضة فأخبرنى متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعنى إلا أن ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون - قال أما هم كفار بظلمهم قال لا لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحدّ فقال الخارجى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول

لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء. قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية ، قال نعم ، قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال أفتبرؤون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبدالله بن خباب وجاريته وهي حامل قال نعم . قال فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرءون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد ؛ فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس مارد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتردون عليهم ما قبل ؛ ويأمن عندكم من خاف عنده ؛ ويخاف عندكم من أمن عنده ، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمنا وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرأيت رجلا ولى قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا ؛ قال أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا . وكان هذا السؤال الأخير محرجا لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سببا لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء ، أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ماقلت وأعلم ما حجتهم . فانظروا كيف فعل مع عمر هؤلاء الناس لما علم أنهم إنما خرجوا طلبا للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره . وهذا من نهاية الرفق على أمته .

ومن أعماله العظيمة تركه لسب عليّ بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه

فتركه وكتب إلى الأمصار بتركه وكان الذى وقر ذلك فى قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء مما يقوله بنو أمية فقال عبيد الله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذى بلغنى عنك فى على فقال عمر معذرة إلى الله وإليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ فأى شر رفع وأى خير وضع وقال فى ذلك كثير عزة .

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف ... بريا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى ... فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه ... من الأود البادى ثقاف المقوم

ومن إصلاحه أمره بعمل الخانات فى البلدان القاصية فقد كتب إلى سليمان بن أبى السرى أن اعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوما وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعا فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج بن يوسف فقد كتب إلى أمير العراق (أما بعد : فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلا من الإثم ولا تحمل خرابا على عامر وخذ منه ماطاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر الا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة فاتبع فى ذلك أمرى فإنى قد وليتك من ذلك ماولانى الله) ومما فعله أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه بعد ان كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوى الأمير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد . ومن الحكمة أن لا يتساهل فى مثل هذه الحدود وضم رأى الخليفة إلى رأى القاضي الذى حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد وقع موقعه .

رده المظالم لأهلها — لما ولى الخلافة أحضر قريشاً ووجوه الناس فقال لهم إن فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إلى ولم تكن من مالى أعود منها على وإنى أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لمولاه مزاحم إن أهلى أقطعونى مالم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه وإنى قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أكلهم إلى الله فخرج مزاحم حتى دخل على عبدالملك بن عمر فقال له إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال إن مزاحماً أخبرنى بكذا وكذا فما رأيك قال إنى أردت أن أقوم به العشية وقال عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذرتى من يعيننى على دينى ثم قام من ساعته فى الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملهما ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبدالملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلىّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا .

لما ولى عمر قال للناس فى خطبة « من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده ؛ ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه ولا يغتابن أحداً ، ولا يعترض فيما لا يعنيه فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله .

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل درهمين وكان يتقشف فى ملبسه بجده عمر ابن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبدالملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبدالملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه

عمر فقال يابنى كيف تجدك قال أجدنى فى الحق قال يابنى إن تكون فى ميزانى أحب إلىّ من أن أكون فى ميزانك فقال ياأباه لأن يكون ماتحب أحب إلىّ من أن يكون ما أحب فمات فى مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لأبيه يا أمير المؤمنين ماتقول لربك إذا أتيته وقدتركت حقا لم تحييه أوباطلا لم تمته فقال يابنى إن أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إلىّ وقدأقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجيلا ألا تطلع الشمس علىّ فى يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت باطلا حتى يأتينى الموت وأنا على ذلك .

وعلى الجملة فإنّ عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذى بعث على رأس المائة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء فى حديث « إنّ الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » .

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الأخلاق وهو فى بيئة المترفين والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التى يعيش فيها الإنسان فنقول : إن عمر بن عبدالعزيز أرسله أبوه إلى المدينة وهو صغير فربى فيها بين فقهائها وصلحائها ، فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرأفة بها . قال محمد بن على الباقر إن لكل قوم نجيبة ، وإن نجيبة بنى أمية عمر بن عبدالعزيز وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر أهله .

لم يحدث فى عهد عمر شىء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره إلى عمر فسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبدالملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذى قدرأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به فقال لا أجد فى أمرك إلا حبسك فاتق الله وأدّ ماقبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين : إنّ الله منح هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أتحمل ماعليه فصالحنى على ماتسأل فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين إن كانت

لك بينة تخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه إلا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر ابن عبدالعزيز واستمر المهلب فى سجنه حتى إذا أحس بقرب موت عمر أعد للهرب عدته خوفا من يزيد بن عبدالملك لأنه كان قد حارب آل أبى عقيل وهم أصهار يزيد لأنه كان متزوجا بينت أخى الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب إلى عمر إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءا فألحقه بى وهضه فقد هاضنى .

ومن الحوادث الخارجية فى عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب .

واستقدم مسلمة بن عبدالملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية وطرندة داخلة فى البلاد الرومية من ملطية ثلاث مراحل وكان عبدالله ابن عبدالله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولى عمر فأمرهم بالعود إلى ملطية وأخلى طرندة خوفا على المسلمين من العدو وأخرب طرندة .

وفاة عمر بن عبدالعزيز

فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفى عمر بن عبدالعزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ فى تقويم مختار باشا المصرى أربعة عشر يوما بدل أربعة أيام لأنه ذكر وفاة سليمان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ماذكره إلا أنه ذكر فى بعض الروايات أن سليمان توفى لعشر مضين من صفر بدل بقين منه وإذا كان ذلك صح أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية فى موت سليمان بل ذكر وفاته فى ٢١ صفر .

٩ — يزيد الثانى

هو يزيد بن عبدالملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد إليه سليمان بن عبدالملك بالخلافة

بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفى عمر بويع بها فلما تولى عمد إلى كل صالح فعله عمر فأعاده إلى ما كان عليه وهو أول خليفة من بنى أمية عرف بالشراب وقتل الوقت فى معاشرة القيان

وفى أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدى بن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والأهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيما يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك . خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم . فسمعه الحسن البصرى سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك والياً ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك فقام إليه أناس فأسكتوه خوفا من أن يسمعه ابن المهلب :

وروى الطبرى أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا إلى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بنى مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب نصبا ثم وضع عليها خرقا ثم قال إنى قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال إنى أدعوكم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد إلى محبس عمر الذى فيه حبسه .

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطا فأقام بها أياما ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود . لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قندابيل لحقهم الجند الذى أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل ابن المهلب فإنهما نجوا . وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تتباهى الأمم بهم ولما تم على يدى مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزارى فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا فارعى فزارة لاهناك المرتع

عزل ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع
وقد علمت لئن فزارة أمرت أن سوف تطمع فى الإمارة أشجع
من خلق ربك ما هم ولمثلهم فى مثل ما نالت فزارة تطمع

يعنى بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد وبأخى هراة سعيد خذينة بن عبدالعزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان.

وولى ابن هبيرة سعيد الحرشى على خراسان وكانت له مع الصغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها.

وفى عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهرانى فاجتمعت الخزر فى جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى وضاربت حتى انقطع سيفى، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا فى بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمى حينئذ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء فسار الجراح حتى وصل برذعة، وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكرو، ولما وصل إلى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيما ثم سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه، ثم سار إلى بلنجر، وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار، ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل إليه فحضر ورد إليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عيناً لهم يخبره بما يفعل العدو، ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفاً من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه، وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثراً وفتحاً فى تلك البلاد القاصية.

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده ، فقيل له إنه صغير ، فولى أخاه هشاما ومن بعده ابنه الوليد .

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفى يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من أرض دمشق ، وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة ؛ وقد أقام خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥ رجب سنة ١٠١ إلى ٢٥ شعبان سنة ١٥٠

المحاضرة الأربعون

هشام — الأحوال الداخلية فى عهده — صفته ووفاته — الوليد الثانى — يزيد الثالث — مروان الثانى

١٠ — هشام

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذ ذاك يحارب مصعب بن الزبير وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية .

وكان حين مات أخوه يزيد مقيما بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول سنة ١٢٥ أى تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بنى أمية ولعمرى إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك .

الأحوال الداخلية فى عهده

فى العراق والشرق - كان أمير العراق حين ولى هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن فى أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسرى وهو

قحطانى . فاختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند .

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقداما غزا فى أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفى سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند إلى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان ، وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبخترى بن أبى درهم وحلق رءوسهم وسيرهم إلى أخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمى من مضر .

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا
إذاً للقيتم عند شد وثاقه بنى الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وخطب أسد يوما فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بينى وبينهم وأخرجنى إلى مهاجرى ووطنى .

فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب إلى خالد اعزل أخاك فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمى وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيرا وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به ولأول عهده أرسل إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك إلى الإسلام فكتب صاحب الخراج إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلى أمير سمرقند إن فى الخراج قوة للمسلمين وقد بلغنى أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة إنما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه كان رسول أشرس إلى الصغد بدعوة الإسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة أن عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبى الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتى جىء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد

واستجاشوا الترك فأعانوهم لما علم بذلك أشرس خرج غازيا فى جنوده حتى عبر النهر من عند آمل فأقبل اليه الصغد والترك وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم ، ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشا لولا أن انتدب شجعانهم إلى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان إلى مدينة كمرجة وهى من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التى على الخندق واستماتوا فى المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل إلى من بالمدينة يقول لهم إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطى ما بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين .

وفى سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبدالله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد ابن عبد الرحمن المرى فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضريا .

وفى سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفاً إلى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف إلى وجه آخر فكتب إليه أمير سمرقند أن خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر . فقال له ذوو الرأى ممن معه إن أمير خراسان لا يعبر النهر فى أقل من خمسين ألفا وأنت قد فرقت جندك ، قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان

فى جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسنا مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر ؛ قال هلاك سورة أهون على قال فاكتب إليه فليأتك فى أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه ، فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم ، فرحل سورة عن سمرقند فى اثنى عشر ألفا فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل .

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه أن خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً على تعبية فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها ، ولم يزل سائراً حتى ورد بخارى ، والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ماظهر من خطأ الجنيد فى تدبيره .

وفى سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالى وكان هشام قد غضب على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم إن أدركته وبه رمق فأزهق نفسه لجاء عاصم وقدمات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر الذى صار عادة فى هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفى عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابساً السواد داعيا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير فى أنهار مرو وفى النهر الأعظم وهرب الحارث .

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون موادها

ومعو نتهافى الأحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غياثه عنها فعزل هشام عاصما عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله القسرى وجعلها من ضمن ولاية خالد ، ولما بلغ عاصما إقبال أسد صالح الحارث بن سريج على أن ينزل الحارث أى كور خراسان شاء وأن يكتبا جميعا إلى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإن أبى اجتمعا عليه فختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو وأصحابه ولما قدم أسد حبس عاصما وحاسبه وطلب منه مائة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد .

وعمل أسد فى تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان فى معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله ، ثم إن خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض : وأرسل أسد مبشراً إلى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً .

وفى سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر فى أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبى وهرب أهله إلى الصين . وفى سنة ١٢٠ توفى أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة .

وفى هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسرى عن العراق لوشاية أثرت فى نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى وكان عاملا على اليمن فسار حتى أتى الكوفة فى جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسن تلك السنة القبيحة المشئومة .

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوى الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازما للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعا حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلى الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلى الضحى ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفا فى ضرب الأبشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه فإن تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله فى الحمق نوادر كثيرة .

ولى خراسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف بن عمر .

وفى ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن على بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سراً قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بنى عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ . وبلغت الأخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيداً وقالوا له . ماقولك فى أبى بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما إلا خيراً وإن أشد ماأقول فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان ماذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم ، فقال إن هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة . وفى الليلة التى كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته أكثر من مائتى نفس ولم يكن القتال الذى قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق . وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن .

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ماوراء النهر كان له فيها النصر دائما ، ووضع الجزية عمن أسلم من العجم . وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان .

فى أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمى وكان له غزوات إلى ماوراء بلنجر وفى سنة ١٠٧ عزله هشام وولى بدله مسلمة بن عبد الملك فأرسل مسلمة نائبا عنه وهو الحارث بن عمر الطائى فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسنا وفى سنة ١١٠ سار مسلمة إلى الترك من باب اللان فلقى ملكهم فى جموعه فاقتتلوا قريبا من شهر وكانت الهزيمة على الترك . وفى سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية

تفليس ففتح مدينتهم البيضاء. وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل، وبذلك طمع الخزر فى البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشى وأتبعه بالجنود ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل إلى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شىء إلى أن وصل برذعة فنزلها. كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشى رحل عنها فوصلها الحرشى وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا فسار اليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه فى أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشى من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشى بجهة برزند واقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى الجملة فإن الحرشى أذل الخزر إذلالا شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه

وأرسل الحرشى بأخبار انتصارة إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار إلى الترك فى شتاء شديد حتى جاز البلاد فى آثارهم وفتح مدائن وحصونا ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه فى جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين فى مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب فى آخر رمق.

وفى سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمائة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه إلى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد

الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذليلا فأقام مروان فى تلك البلاد أياما ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح أقلاعا ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ماعليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتى لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفاً شديداً ودانت له جميع البلاد التى على شاطىء بحر الخزر .

فى الشمال

كانت الحرب لاتنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالى للبلاد الإسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتى والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش فى تلك الأصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد ابن هشام وسليمان بن هشام ، وقد افتتحوا فى غزواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع .

وكانت مراكب البحر لاتزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر فى عهد هشام عبدالرحمن بن معاوية بن خديج ومن أكبر القواد عبدالله بن عقبة .

ومما ينبغى ذكره فى حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ ، وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبدالوهاب بن بخت ، أمن الجنة تفرون ثم تقدم فى نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه ، فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل ، وفى سنة ١٢٢ قتل عبدالله البطال وكان كثير الغزو إلى بلاد الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفا شديداً وسيره عبدالملك بن مروان مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم وأمره على رءوس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال إنه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم

وإنما أشرنا إلى ذكر عبدالوهاب والبطال لأنهما بطلا رواية كبيرة ألفت فى عصر لانعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهى أم عبدالوهاب وقد كنا فى صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكه بقراءتها واليوم لانرى أحداً يقرأ منها شيئاً وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر أنهما ألفا فى عصر واحد

فى الحجاز :

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومى خال عبدالملك بن مروان وفى سنة ١٠٦ حج هشام بن عبدالملك ، ومما يروى عنه فى حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبدالله بن الوليد ابن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغى له أن يلعنه فيها ، فشق على هشام قوله وقال لا قدمنا لشتم أحد ولا للعنه ، قدمنا حجاجا ثم قطع كلامه وأقبل على أبى الزناد راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه .

ولما دخل مكة كلمه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو فى الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذى خرجت معظما له ألا رددت علىّ ظلامتى قال أى ظلامة قال دارى قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمنى ، قال فالوليد وسليمان قال ظلمانى قال فعمر ، قال رحمه الله ردها علىّ قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمنى وقبضها منى من بعد قبضى لها وهى فى يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال فىّ والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال فى الناس بقايا ما رأيت مثل هذا .

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم إلا فى سنة ١١٦ فإن الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك .

ولم يحصل فى الحجاز حوادث ولا ثورات فى عهد هشام .

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه إن شاء الله وحده ؛ فى تاريخ مصر هذا مجمل حال الأمة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الأعداء إلا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعباً جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قوياً فإذا ضعف

أثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد أنه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل .

ولاية العهد

كان ولى العهد بحسب وصية يزيد بن عبدالملك هو الوليد بن يزيد فبدا لهشام أن يعزله ويولى بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وإن كان قد أجابه بعض القواد إلى ما أراد وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالأزرق على ماء له بالاردن .

وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفى هشام بن عبدالملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥) .

صفته

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة ، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال له الرجل أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى الارض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص منى قال إذاً أنا سفيه مثلك قال فخذ منى عوضا من المال قال ما كنت لأفعل ، قال فهبها لله ، قال هى لله ثم لك . فنكس هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها أبداً

قال عبدالله بن على بن عبدالله بن عباس جمعت دواوين بنى أمية فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم مايمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض . والمراد بالدواوين ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التى بها يعرف مايرد على الدولة ومايصرف . ولعل هذا هو الذى جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفا حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء اليه كثيراً حتى ساء خلقه . ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ماأراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته .

١١ — الوليد الثانى

هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف

الثقفى كان واليا للعهد بعد هشام وكان مغاضبا له فى حياته حتى خرج وأقام فى البرية كما ذكرناه .

ولم يزل مقيما فى تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول مافعله أن كتب إلى العباس بن عبدالملك بن مروان أن يأتى الرصافة فيحصى مافيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كلم أباه فى الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير فى الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الأحول المشـ ـئوم وقد أرسل المطر وملكنا من بعد ذا
ك فقد أورق الشجر فاشكر الله أنه زائد كل من شكر

وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى محلبه الأوفر قد أترعا
ليت هشاما عاش حتى يرى مكياله الأوفر قد طبعا
كلناه بالصاع الذى كاله وما ظلمناه به أصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعه أحله الفرقان لى أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الأمة وأفراد البيت الأموى .

كان ممن أجاب هشاما إلى خلع الوليد محمد وإبراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفى واليا عليها ودفع إليه محمداً وإبراهيم موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا إلى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أى قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط إلا فى حد قال ففى حد أضربك وقود أنت أول من فعل بالعرجى وهو ابن عمى وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجى إياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوثقهما حديداً وأمر أن يبعث بهما إلى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتى ماتا .

وأخذ سليمان بن هشام بن عبدالملك فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه

إلى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك .

وكان خالد بن عبد الله القسرى سيداً من سادات اليمن فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً فى أن أرسله إلى يوسف بن عمر الثقفى والى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه عذابا شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاعة وهم أكثر جند الشام .

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك .

بذلك كله نفرت من الوليد القلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله إلا شهوة الانتقام التى لا يستقيم بها الملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع . أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار فى ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايعه الناس سراً وبعث دعاته فدعوا إليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد إلى العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وكان واليها عبد الملك ابن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشا لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز ابن الحجاج بن عبد الملك فذهب إليه وهو بالأغدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه وجلس وأخذ مصحفا فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به فى دمشق .

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر . وبقتله افتتح باب الشؤم على بنى أمية .

١٣ — يزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز ابن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وفى ذلك يقول :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لأنه نقص من أعطيات الناس مازاده الوليد بن يزيد وردها إلى ما كانت عليه زمن هشام . وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب فى البيت الأموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته .

وأول ماكان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان ابن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملا للوليد على حمص وهو من سادة بنى مروان نبلا وكرما وعقلا وجمالا ؛ فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسلا فيهم يعقوب بن هانىء وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وإنما يدعو إلى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشا عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين . كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى دمشق فأشار عليهم مروان بن عبد الله أن يبدؤا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفيانى وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجداً فى أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيما ولما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير إليهم يزيد سليمان بن هشام فى أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفيانى وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفا ولم تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد .

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فإن يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر ابن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم ، قام فى وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع ابن على الأزدى المعنى ويلقب بالكرمانى لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانيسة والنزارية ، فاستحضر نصر الكرمانى وحبسه فاحتالت الأزد حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لأن كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بنى العباس ، ولم يكن عند ولاة الأمر من بنى أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التى أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال .

لم تطل مدة يزيد فى الخلافة فإنه توفى لعشر بقين من ذى الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة أشهر واثنين وعشرين يوما من استخلافه . وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن عبدالملك . فلما توفى يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالأمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما .

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والى الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية إبراهيم فسار إلى الشام فى جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الجر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل إبراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى عليها وبايعه أهلها وهرب إبراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الأمر لإبراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء .

١٣ — مروان الثانى

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الأشتر فأخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه فى القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع الخلافة فى دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧ .

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع إلى أن قتل .

وأول ما كان من ذلك خروج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة داعياً إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جداً وكان والى العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز فجد فى حربه ، وكانت العامة تميل إليه لمحبتهم لأبيه فساعد ذلك على أن غلب عبدالله بن معاوية ونفاه عن العراق .

ثم كان بالشام ماهو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالى على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم ؛ ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك فإنه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أرضى عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فأقبل إليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة أن انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيما فقتلهم ، ويقال إنه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين ألفاً ومضى سليمان فى هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان ، وفى الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ، ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها ، أما مروان فأتى حمص واستولى عليها . فأنتم ترون أن القوة التى كان يرتكز عليها ملك بنى أمية وهى جنود الشام قد انشقت انشقاقاً محزناً تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم

مايساعد العدو الذى يعرف كيف ينتهز الفرص .

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار ما فى أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيبانى وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله إلى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل فى هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذ ذاك محاصرا لحمص فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار إليها فى سبعة آلاف فسار إليه الضحاك وحصره فى نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به فى نواحى كفر توثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبرى أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبرى إلى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبرى ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز المعسكر بخمسة أميال منهزما فانصرف إلى عسكره ورد خيوله إلى مواقعها وبات ليلته فى عسكره .

ولما علم الخوراج بقتل الخيبرى ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكرى فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلى الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر .

فى أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جندا لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان فى أثره جندا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فإن قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠ ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدى الشهير بأبى

حمزة وكان يوافى الموسم كل سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبدالله بن يحيى فى آخر سنة ١٢٨ فقال له يارجل اسمع كلاما حسنا أراك تدعو إلى حق فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان .

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ إذ طلعت عليهم اعلام وعمائم سود على رؤس الرماح وهم سبعمائة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير .

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم فى العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبى حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله ﴿ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض﴾ أقبلنا من قبائل شتى النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافا واحدا قليلون مستضعفون فى الأرض فقوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعا بنعمته إخوانا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان

وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إماما جائرا يا أهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها مالم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب يا أهل المدينة أخبرونى ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل فى كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابراً محاربا لربه يا أهل المدينة بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا أحداثا شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة فلما نظروا إلى السيوف قد انتضبت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين فى منقار طائر طالما فاضت فى جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرنا ﴿وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ثم إن أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبدالملك بن محمد بن عطية السعدى وأمره أن يجد فى السير ويقاتل الخوارج فإذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقى أبا حمزة بوادى القرى فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار إلى اليمن وبلغ عبدالله بن يحيى مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا قتل عبدالله وحمل رأسه إلى الشام.

كل هذه المشاغل والفتن التى كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجرى فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بنى العباس ورئيسهم المقدام أبى مسلم

الخراسانى على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بنى العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بنى أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدولة العباسية) .

وفى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لأبى العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر فى إرسال الجند لمروان حتى يقضى عليه القضاء الأخير فاختار عمه عبدالله بن على قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبدالله بن على يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبدالله فى أثره أخاه صالح بن على فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلا فى كنيسة بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) .

الخاتمـــة

فى مدنية الإسلام فى عهد الدولة الأموية وأسباب سقوطها

الخلافة الإسلامية

لبست الخلافة فى عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لايمنعهم دون الخليفة حجاب ولايصدهم عنه باب وجد فى العهد الأموى الحجاب والمقاصير فى المساجد الجامعة وبعدأن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه قال عبدالملك بن مروان فى خطبته بعدقتل ابن الزبير ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم فى الأسواق والمجامع يأمر ينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوى حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الأمير عمر ابن عبدالعزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد بن عبدالملك حينما جاءه نعى عمه هشام ابن عبدالملك.

طاب يومى ولذ شرب السلافة ... وأتانا نعى من بالرصافة

وأتانا البريد ينعى هشاما ... وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزئ أحدهم بأقل مايجتزئ به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لاعليه ولاله صرنا نرى بنى مروان قد انغمسوا فى الترف فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الأغانى من القيان كما يروى عن يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد بن يزيد. وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة فى هذه الدولة قد انحصرت فى بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولى عهده من أهل بيته إما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن

الملك العقيم وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره فى النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبدالملك يقول للناس تطالبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبى بكر وعمر وتسيرون أنتم بسيرة الناس فى عهد أبى بكر وعمر فكأنه يعتذر لهم عن قسوته فى معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له .

هم بدلوا الحكم الذى فى سجيتى　　فبدلت قومى غلظـــة بليان

وإذا كنا على رأى من يقول إن الأمة هى التى تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبدالملك ويزيد فيما قالاه .

وعلى الجملة فإن مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها فى آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة فى بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بنى أمية على اختيار أولياء العهد فى حياتهم فكلهم كان مختارا من سلفه ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبى سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد ابن عبدالملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة ، ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثانى فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبنى أمية على يد ابنه عبدالملك ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثانى حتى قتله وحل محله . ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل فى أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده .

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثانى اختاره يزيد ، وعبدالملك اختاره أبوه مروان ، والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبدالملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان : الأول ابن عمه والثانى أخوه وهشام والوليد الثانى اختارهما يزيد الأول أخوه . والثانى ابنه .

ولم يحصل فى عهد بنى أمية أن اختار أحدهم واحدا لولاية عهده بل كانوا دائما يختارون من يلى عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التى جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا

عنها فكانت سبباً مهما من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتى توضيحه .

وكانوا يأخذون البيعة فى حياتهم لولاة عهودهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق . وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموى ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شذوا أحيانا عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المرى البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة بن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه

إدارة البلاد

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم .

وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى وهى :

(١) الحجاز : وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف إلى ذلك أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير .

(٢) العراق : وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والأمير يقيم فى الكوفة بعض السنة وفى البصرة بعضها ، وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يخاطب الخليفة رأساً وقد يضاف أحيانا إلى إمارة العراق بلاد اليمامة .

(٣) الجزيرة وأرمينية : وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية .

(٤) أجناد الشام : وكانت خمسة وهى : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين ، وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص ، حتى كان يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبجا جنداً برأسه ، وإنما سمى كل منها جنداً ، لأنه يجمع كوراً ، والتجند التجمع ، وقيل سميت كل ناحية بجند ، كانوا يقبضون أعطياتهم فيه والأقرب أن هذا هو أصل التسمية .

(٥) مصر وإفريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقيا ، وكانت أفريقية فى بعض الأحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى أفريقية .

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التى هى فى حدود إمارته .

كانت الأعمال التى ترجع إلى الخلفاء وهى :

(١) إقامة الصلاة

(٢) قيادة الجيش

(٣) جباية الخراج ، والصدقات ووضع ذلك مواضعه .

(٤) القضاء بين الناس فى منازعاتهم ، وقد كان الأمير يقوم مقامه الخليفة أحيانا فى جميع ذلك ويقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابيا للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع إليه رأسا .

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى فى العرف الحاضر بالاستقلال الإدارى فكانوا يتصرفون فى كل شىء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال فى بلاد العراق فى عهد زياد ابن أبى سفيان وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبدالله القسرى إلاأن الحجاج كان أكثرهم استقلالا للثقة التى حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضى فى حواضر الإمارات إلا أنه لامانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره إلى الخليفة وقدترفع عنه ظلامته وقد ضيق على الأمراء عمر بن عبدالعزيز بعض التضييق لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم أن لاينفذوا حداً من الحدود من قتل أوقطع إلا إذا عرض عليه وأمر بتنفيذه ، أما فى عهد غيره فكان الأمراء يفعلون مافوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لامن الخليفة ولا من الناس .

والذى دعا إلى تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير فى كل ما يقع فى

دائرة ولايته اطال عليهم الزمن ، وبقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير .

ومن أعظم مايؤخذ على بنى أمية فى النصف الثانى من أيام خلافتهم إذلال الأمراء ومصادرتهم فى أموالهم وأحياناً الإتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا فى عهد سليمان بن عبد الملك فإنه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل ، ووطئوا لهم المنابر واستمر الأمر على ذلك من بعد عمر بن عبدالعزيز إلى أن انتهى أمرهم ، وقد كان هذا سبباً من أسباب فناء البيت الأموى ومن أغرب ماحصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفى الذى ولى العراق بعد خالد بن عبدالله القسرى اشترى من الوليد بن يزيد خالداً وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه إليه فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله فى الليل ودفنه من وقته بالحيرة فى عباءته التى كان فيها وذلك بعد أن ولى خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم .

قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح ، ففيه اتسعت حدود المملكة الإسلامية من الجهة الشرقية فى السغد والصغد وبلاد الترك ، ومن الجهة الشمالية فى أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية فى أفريقية والأندلس .

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام . حيناً مع الخوارج وحيناً مع طلاب الخلافة من بنى على ولم يخل عصر خليفة أموى من حروب داخلية إلا عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز . فهى إذاً دولة حربية . ولا جرم أن امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حومة الوغى واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير فى الحرب وهانحن نورد على أسماعكم جملة من أولئك الأفراد العظام الذين مر ذكرهم .

ممن اشتهر بالشرق

(١) المهلب بن أبى صفرة الازدى ، وكان عله تاماً بمكيدة الحرب والاحتراس من

غوائلها واشتهر فى حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات .

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلى وكان شجاعا مقداما لا يرده شىء عن قصده ، واشتهر بحروبه بما وراء النهر فإنه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها ، وقد أخذ عليه خلعه لسليمان ابن عبدالملك عقب خلافته ، وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته ، وفقد الدولة صالح خدمتهم .

(٣) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه فى جرجان وطبرستان فإنه رد أهلها إلى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق - طريق خراسان - وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبدالملك عقب خلافته ، وكان ذلك سبباً لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة فى جبين الدولة الأموية .

(٤) أسد بن عبد الله القسرى اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائداً قبله وأخذ عليه عصبيته لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سبباً فى فساد أهل خراسان واختلافهم .

(٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى اشتهر بحروبه فى بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل فى أول خلافة سليمان بن عبد الملك واشتهر فى أرمينية وأذربيجان .

(٦) محمد بن مروان بن الحكم الأموى كان شجاعا أيدا وعزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبدالملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح فى شمال أرمينية وأذربيجان .

(٧) مروان بن محمد بن مروان كان كأبيه بطلا مقداماً سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن .

(٨) الجراح بن عبدالله الحكمى ، وقد قتل فى بعض حروبه مع الخزر واشتهر فى بلاد الروم .

(٩) مسلمة بن عبدالملك كان أشجع أولاد عبدالملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ، ولم يكن بنو أمية فى أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر .

(١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة

(١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامى مسلمة فى نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا مايقود الشواتى والصوائف إلى البلاد الرومية واشتهر فى الغرب وأفريقية

(١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر فى معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل فى إحدى تلك الوقائع

(١٣ و ١٤) موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس وأدخلا الإسلام فى قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد : لكن لم يكن لهم من رفعة القدر مالهؤلاء ولم تكن همة الدولة الإسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يحمى البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر فى الدولة الأموية تقل مهارة وإقداما عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فإن الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التى تجاورها من الشرق والشمال والغرب فى جميع أدوارها . وكانت السيادة فى الجيوش للعنصر العربى لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

القضاء والأحكام

لم يزل القضاء فى عهد هذه الدولة على بساطته التى كان عليها فى عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الأحكام قال محمد بن يوسف الكندى فى كتاب الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم إلى سليم بن عتر (قاضى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان) فى ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه .

ولم يكن القضاة يتقيدون برأى فى أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم أو إلى مايشير به المفتون من كبار المجتهدين فى أمصارهم.

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم، فلما ولى القضاء بمصر فى عهد هشام بن عبدالملك كان يرى أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع إليه غلام من حمير لاتحوى يده شيئاً إلا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن احجر عليك يابنى قال فمن يحجر عليك أيها القاضى والله مانبلغ فى أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد. فهذا الخبر يدل على مقدار ماكان للقضاة من الحرية فى اختيار الآراء التى يقضون بها. وأحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم فى الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدى قاضى مصر من قبل عمر بن عبدالعزيز إليه يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران؛ فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التى يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة.

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضاً فى الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد؛ ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شىء يقضى به قضاتهم أو يحمل مجتهدى كل مصر على عمل مايصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين، لم يفعلوا هذا ولا ذاك؛ بل تركوا لكل قاض تمام حريته فى الحكم بما يراه.

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج قاضى مصر من قبل عبد العزيز بن مروان؛ فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده. قال الكندى فجرى الأمر على ذلك.

وكانوا يتولون الأحباس، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر فى زمن هشام بن عبد الملك، وإنما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم، فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء

والمساكين فأرى أن أضع يدى عليهما حفظا لها من التواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانا عظيما وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر.

كان اختيار القضاة يرجع غالباً إلى أمراء الأمصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحيانا كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى فى اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مد الأيدى إلى السحت رأيت أن عبدالرحمن بن بجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه فى السنة من القضاء مئتى دينار ومن القصص مئتى دينار ورزقه فى بيت المال مئتى دينار وكان عطاؤه مئتى دينار وكانت جائزته مئتى دينار فكان يأخذ ألف دينار فى السنة. ورأيت فى الكندى أمرا بصرف مرتب قاض فى عهد مروان الثانى هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبى عطاء إلى خزان بيت المال أعطوا عبدالرحمن بن سالم القاضى رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين دينارا واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدما.

الدواوين

كانت الدواوين لعهد بنى أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند

(٢) ديوان الخراج

(٣) ديوان الرسائل: فأما ديوان الجند فإنه مذ وضع كان بالعربية لأن عمر إنما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش: وكان هذا الديوان يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية).

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث لم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيه فلما ولى الحجاج العراق كان رئيس الديوان فى عهده

زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبدالرحمن وكان أبوه من سبى سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذى رقيتنى حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يقدمنى عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لاتظن ذلك هو أحوج إلى منى إليه لأنه لايجد من يكفيه حسابه غيرى فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته قال فحول منه أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث إليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لايظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان فى فتنة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان فى نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه فى إمضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لايظهر النقل فأبى عليهم وكان عبدالحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب .

وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل فى خلافة الوليد بن عبدالملك وكان الذى يليه فى عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون .

وأما ديوان مصر فقد نقل فى عهد عبدالله بن عبدالملك أمير مصر من قبل الوليد ابن عبدالملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال فى الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً .

وكان عندهم مايسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذى تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكاد الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبدالحميد بن يحى قال الطبرى وكان من البلاغة فى مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحل ما ليس بالقافل وأعقب ما ليس بالزائل

فلهفى على الخلف النازل ولهفى على السلف الراحل
أبكى على ذا وأبكى لذا بكاء مولهـة ثاكل
تبكى من ابن لها قاطع وتبكى على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة لها فى الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبى ورد التقى عن الباطل

السكة الإسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله ، وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل ، وأن عثمان ضرب فى خلافته دراهم نقشها الله أكبر .

قال المقريزى فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبى سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلباً للإحسان إلى الرعية فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة ، فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجرى مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً .

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ماضرب منها قبل ذلك ممسوحا غليظاً قصيراً فدورها عبدالله ونقش على أحد وجهى الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس فى العطاء .

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم فى سنة ٧٦ فجعل

وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامى وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاسوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف ، وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإن فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشترى ولا يعيب من أمرها شيئاً ، وجعل عبدالملك الذهب الذى ضربه دنانير على المثقال الشامى وهى الميالة الوازنة كل مائة دينارين أى أن النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و١٠٢

ثم قال وكان الذى ضرب الدراهم رجلا يهودياً من تيماء يقال له (سمير) نسبت الدراهم إذ ذاك السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب وقيل لها الدراهم بها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها فى كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كى يحصيه عندهم وأن تضرب الدراهم فى الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أولا فأولا ، وقدر فى كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهى الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا إله إلا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب فى الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفى الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبدالملك إلى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية والعتق تبقى مع الدهر وقد جاء فى الزكاة أن فى كل مئتين أو فى كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق أن جعلتها كلها على مكان السود العظام مئتين عدداً أن يكون قد نقص من الزكاة وأن عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مئتين عدداً وجبت الزكاة فيها ، فإن فيه حيفا وشططا على أرباب الأموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبدالملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار ؛ فلما اجتمعوا مع عبدالملك على ماعزم عليه عهد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق فجمعها وكمل زيادة الأكبر على نقص الأصغر وجعلها درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى ، واعتبر المثقال أيضاً فإذا هو لم

يبرح فى آماد الدهر موفى محدوداً كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره .

ثم قال ومات عبدالملك والأمر على ماتقدم فلم يزل من بعده فى خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبدالملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبدالملك وكان جموعا للمال أمر خالد ابن عبدالله القسرى فى سنة ١٠٦ أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكك من كل بلد إلا واسطا فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفى فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران إلى أن قتل .

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا فى الجزء الأخير من الخطط توضيحات نافعة فى أمر الدرهم والدينار فى الدول الإسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير فى الأزمنة المختلفة ، وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التى يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨ر٣٢ جراما فسدسها الذى هو المثقال ٢ر٤٧ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئا يسيرا إذ أن وزنه ٤ر٦٩ وأن الدينار كان وزنه ٤ر٣٥٠ .

ومن الجدول الذى ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوى وزن القطعة ذات القرشين تقريبا لأن وزنها ٣ر٥٠ جرامات وكان الدرهم فى عهد عبدالملك يتراوح وزنه بين ٢ر٩٤ ج وبين ٢ر٧٠ ج وأن وزن الدينار كان يساوى فى الوزن نصف الجنيه الإنكليزى لأن وزنه ٤ر٢٥ وقد كان وزن الدينار فى عهد عبدالملك يتراوح بين ٤ر٢٤ ج وبين ٤ر٢٥٢ .

ومما بين يظهر فضل عبدالملك بن مروان فى ضربه نقودا إسلامية لأن هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالى وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس فى الدرهم والدينار .

أسباب السقوط

استولى البيت الأموى على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة فإن

معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضى الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته. كان فى الأمة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بنى هاشم والأولون ذوو إقدام وبسالة ألداء لا يقف فى أوجههم عما أرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك إلا إذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التى تشايعه والتى سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ماتهب تلك القلوب من مكانها فإن صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه.

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ماألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يغضى عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحا ومن العداء تقربا ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذى يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة إلا أنه نرى فيما زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهى اهتمامه بالغض من على بن أبى طالب على منابر الأمصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتى جعل النيران تتأجج فى صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضا وربما رد الجرىء منهم على الأمير وجها لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف فى العقوبة يزيد الأمر شرا كما حصل من زيادة فى أمر حجر الكندى.

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموى كانوا فى حاجة لتأييد سلطانهم إلى ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببا فى القضاء عليهم وهى:

أولا - ولاية العهد

كانت ولاية العهد سببا كبيراً فى انشقاق البيت الأموى وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلى أحدهما الآخر. وأول من فعل ذلك مروان فإنه ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده

إلى ابنه الوليد وعزل أخيه لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولى ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد نخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم ؛ أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاما أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج فى ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد ؛ وكان كثير من كبار القواد وذوى الكلمة المسموعة فى الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد فى الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول فى إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التى كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين .

ثانيا ــ إحياء العصبية الجاهليـة التى جاء الإسلام معفياً لأثرها ومشدداً فى النعى عليها لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هـذه العصبيات التى أضعفت قواهم فى جاهليتهم .

وقد نبض عرقها فى أول الدولة المروانية فإن وقعة مرج راهط التى تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التى كانت تشايع الضحاك وكلب التى كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبي ؛ وقال فى ذلك مروان :

لما رأيت الأمر أمراً نهبا ... يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكين رجالا غلبـــا ... وطيئا تأباه إلا ضربا
والقين تمشى فى الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخرا صعبا
لا يأخذون الملك إلا غصبا ... وإن دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذى أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار ابن عبيد الثقفى كان يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمى كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يا لثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله

وكثير من جند الشام ؛ فى الوقت الذى نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن فى الشام كان ما هو أشد منه فى خراسان ؛ فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبى صفرة وهو أزدى والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلا من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبيدالله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت فى المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لى عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم إلى مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار إليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلا ذريعاً ثم عاد ابن خازم إلى مرو .

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لأنهم من مضر ، فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع .

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساما أربعة : اليمن وربيعة وقيس عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر .

كانت الأمراء تساعد على إنماء هذه الروح الخبيثة فإذا ولى يمانى رفع رؤوس أهل اليمن واستعملهم عمالا على الأمصار ، فإذا تلاه مضرى عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله .

ولم يكن ذلك العرق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم ، فإذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموى الذين يطالبونه بما فى يده مما ليس له فإن أبا مسلم الخراسانى اتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم ولا ننسى أن لشعراء العرب الذين نبغوا فى هذه الدولة يداً كبرى فى إنماء هذه العصبية ؛ فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك ؛ لا شىء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف

فتنتمى إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فإذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فإن الكلمة تحق على الأمة ويقرب منها الفناء. فإن الجهل يجعل روح العصبية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لاقبل لها بمن ينازعها بقاءها لم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية فى قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموى وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ماكان فى عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله إن شاء الله

(ثالثا) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم فى أمر قوادهم وذوى الأثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الأول والثانى، فإن سليمان ابن عبد الملك لما ولى بعد أن كان الوليد يريد إخراجه من ولاية العهد عمد إلى كل من كان هواه مع الوليد فأذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولا ذنب لهما إلا أنهما من صنائع الحجاج الذى كان هواه مع الوليد ولا يميل إلى سليمان. ولما جاء يزيد بن عبدالملك كان هواه مع آل الحجاج لأنه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وهلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبى صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار فى خدمة بنى أمية والأمة الإسلامية وكان بعد هذا شىء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية ومن يؤازرهم

الأمة التى ينتقم خلفها من عمال السلف لأنهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء. فلا يختمر لها رأى ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الأمم سائرة إلى أمام وهى فى موقفها ولها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة إلا صادفتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر إذ تساق إلى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه - لما كان أكثر الذين دونوا فى عهد بنى أمية قد عاشوا فى الدولة العباسية استحسنا أن نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

﴿ تم الجزء الثانى من المحاضرات ﴾

فهرست

الجزء الثانى من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تمت فهرست الجزء الثانى